بسم الله الرحمن الرحيم

سورة آل عمران

وهي سورة مدنية؛ لأن صدرها إلىٰ ثلاث وثمانين آية نزلت في وفد نصارىٰ نجران، الذين قدموا علىٰ النبي ﷺ في العام التاسع من الهجرة النبوية الشريفة.

وهي تهدف إلىٰ بيان أمرين هامين، وترسخهما بجلاء في أذهان الجماعة المسلمة، وهي تعدها لحمل الأمانة في دنيا العالمين.

وهما: توضيح العقيدة الإسلامية، وإقامة الدلائل علىٰ وحدانية الله تعالىٰ، وعرض مباهج الشريعة الإسلامية، وبخاصة فيما يتعلق بالجهاد في سبيل الله.

وإذا كانت سورة البقرة قد ناقشت اليهود، وتحدثت عنهم، فإن هذه السورة تناقش النصارىٰ، وتتحدث عنهم.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾﴾

أي: نزّل القرآن عليك يا محمد، بالحق الذي لا شك فيه، وهو مصدق بما فيه للكتب المنزلة قبله من السماء علىٰ عباد الله الأنبياء، وهي ـ كذلك ـ تصدقه، بما أخبرت به، وبشرت في قديم الزمان، وأنزل الله التوراة ـ أيضًا ـ علىٰ موسىٰ بن عمران، وأنزل ـ كذلك ـ الإنجيل، علىٰ عيسىٰ ابن مريم عليهما وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام.

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾

أي: أنزل الله التوراة والإنجيل من قبل القرآن، هدًى للناس في زمانهما ممن تبعهما، ثم أنزل القرآن بعد ذلك هداية للناس جميعًا، وفارقًا بين محلية الدعوة وعالميتها، وفارقًا ـ كذلك ـ بين الحق والباطل بالدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات.

إن الذين جحدوا بآيات الله من القرآن وغيره وأنكروها، وردوها بالباطل لهم عذاب شديد يوم القيامة، والله عزيز منيع الجناب، عظيم السلطان ذو انتقام.. ممن عصاه، وكذب بآياته، وخالف رسله الكرام، وأنبياءه العظام.

ثم تبدأ الآيات في الرد على وفد نصارى نجران.. بأسلوب المربي الحكيم، فيقول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾

نعم.. هذا هو الله سبحانه وتعالى، يعلم غيب السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء فيهما ولا منهما، وأما عيسى الذي كان يخبر ببعض الغيب، فإنه يخفى عليه كل الغيب بعد ذلك، ولهذا فليس بإله كما تزعمون. وأيضًا فإن الله سبحانه وتعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾

وعيسى لا يفعل ذلك ولا يقدر عليه، بل هو نفسه صوره الله في الرحم.

ولهذا فهو من جملة خلقه، وليس بإله، كما تزعمون.

أما العزيز في سلطانه، الحكيم في تدبيره..!! فإنه يخبر أن في القرآن آيات محكمات واضحات الدلالة هنَّ أم الكتاب، **أي**: أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه، وأنه فيه آيات أخر متشابهات، **أي**: تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل شيئًا آخر.

وفي هذا بيان ودلالة على إحاطة علمه سبحانه. يقول الله عز وجل:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾

عزيزي القارئ: لقد فهمت من هذه الآية الكريمة.. أن آيات القرآن فيها المحكم وفيها المتشابه.

ولعلك تعرف ـ كذلك ـ ما يفيد أن كله محكمًا، كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] فلا تنزعج؛ حيث إن المعنى في الآية: أنه ليس فيه عيب.

ولعلك تعرف ـ أيضًا ـ ما يفيد أنه: متشابه كله، كما في قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]. فلا تنزعج أيضًا؛ حيث إن المعنىٰ في الآية: أنه يشبه بعضه بعضًا في الحسن والصدق.

علىٰ كل حال.. الناس أمام الآيات المتشابهات في القرآن فريقان:

الفريق الأول: هم الذين في قلوبهم ميل عن الحق يتعلَّقون بالمتشابه. بسبب:

أولًا: ليفتنوا به أتباعهم، فيوقعونهم في الشبهات.

ثانيًا: يحاولون تفسيره، ومعرفة المراد منه، مع أنهم ليسوا من أهل العلم، كما أنه لا يعلم معناه إلَّا الله وحده، وقد يعلمه ـ بعون الله ـ الراسخون في العلم.

والفريق الثاني: هم الراسخون الثابتون المتمكنون في العلم، وهؤلاء يقولون: آمنا بالمتشابه ولا نعلم معناه، وكل من المحكم والمتشابه: من عند ربنا ﷻ.

وهكذا: ما يتعظ ويتذكر، ويتقي ربه إلَّا أصحاب العقول، الذين يدعون الله قائلين:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾

والذين يثنون علىٰ ربهم قائلين:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾

وبعد هذا الحديث عن الراسخين في العلم الثابتين في الإيمان: يخبر ربنا ﷻ عن الكفار، مبينًا أنهم وقود النار. فيقول الله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾

وهكذا يبطل الله نفع أموالهم التي يغترون بها علىٰ العباد، ويطغون بها في البلاد، ويكثرون فيها الفساد.

ويبطل كذلك نفع أولادهم، الذين يعتزون بهم ويتفاخرون، بل يصيرون هم ـ ليسوا في النار فقط، بل ـ وقود النار نفسه، والعياذ بالله.

مثلهم في ذلك، كما قال تعالىٰ:

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

ولذلك ومن باب التهديد والتخويف يخبر الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾

وقد كان.. حيث غلبهم النبي ﷺ في معظم معاركه في سبيل الله معهم، وسوف يكون دائمًا.. كلما عمل المسلمون بهدي ربهم، ورفعوا راية دينهم.

وفوق ذلك يحشر الأعداء يوم القيامة إلىٰ جهنم، وبئس المستقر والمقام.

هذا.. وقل لهم يا محمد أيضًا:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾

وكان ذلك في يوم بدر. وبقدرة الله، صار الكفار يَرونَ المسلمين الذين كان عددهم ثلاثة عشر رجلًا وثلاثمائة فقط، يرونهم مثليهم، أي: ألفين؛ إذْ كان الكفار ألفًا من المقاتلين.

وهكذا يؤيد الله بنصره مَن يشاء، دائمًا. حيث إن في ذلك النصر، بهذا الشكل لعبرة باقية إلىٰ يوم القيامة، يستفيد منها معرفة بنصر الله، واحتماءً بجنابه، واطمئنانًا لرعايته، كلما كانت المواجهة بين الكفر وأهله، والإيمان وأوليائه ـ أولو الأبصار.

وبعد بيان المولىٰ لعدم نفع الدنيا، وما فيها من أموال وأولاد، كانوا يغترون بها ويعتزون..!! يبين ربنا جل وعلا حقارة شأن الحظوظ الدنيوية بأصنافها، تزهيدًا للمؤمنين فيها، وتوجيه رغباتهم إلىٰ ما عند الله من النعيم المقيم. حيث يقول المولىٰ ﷻ:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾

يُلاحظ جيدًا... أن الله تبارك وتعالىٰ ـ بالرغم من تزهيده لنا في هذه الحظوظ الدنيوية ـ قد زينها للإنسان.. وذلك: من أجل أن تعمر الحياة الدنيا.

ولذلك: إذا استعمل الإنسان هذه الأشياء المذكورة ضمن ما حدَّد الله في كتابه، وبيَّن رسوله ﷺ في سُنته.. يكون قد حقق الحكمة من التزيين، وعمرت الحياة، ولم تفسد الأرض، وأرضَ الله ﷻ في ذات الوقت.

وأما إذا تجاوز الإنسان في استعمالها وفق ما حدد الشرع، فقد أفسد الأرض، وأسخط الله تعالىٰ.

وفي الأول والآخر، فهذه الأشياء كلها متاع الحياة الدنيا..!! يتمتع الإنسان به في الدنيا ثم يفنىٰ، ولكن ما عند الله هو الحسن كله، وهو الجنة.

ولذا فينبغي توجيه الرغبة فيما عند الله دون غيره، والعمل الجاد لنواله؛ والفوز به.

وبعد أن بيَّن المولىٰ ﷻ ما زينه لنا في الحياة الدنيا من متاعها الزائل، وزهَّدنا فيه، يرفع همتنا سبحانه وتعالىٰ إلىٰ ما أعده في الآخرة لعباده الصالحين، من النعيم المقيم.. فيقول اللهُ ﷻ:

﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

أي: قل يا محمد أأخبركم بخير مما زين للناس في الحياة الدنيا؟ والسؤال للتشويق والترغيب.

والجواب: أن لهؤلاء الذين اتقوا ربهم، فأطاعوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، وعملوا بشريعته، لهم عند ربهم في يوم القيامة هذه الأشياء:

أولًا: جنات تجري من بين جوانبها وأرجائها.. أنهار العسل واللبن والخمر والماء.

ثانيًا: أزواج مطهرة من كل دنس وخبث مادي ومعنوي.

ثالثًا: ورضوان من الله ينعم عليهم به، فلا يسخط عليهم أبدًا.

والله بصير بالعباد يعرف إخلاص كل منهم، ومقدار تقواه؛ فيجازي كل واحد منهم بما يستحق.

ولكن.. مَن هؤلاء العباد، الذين يستحقون كل هذا العطاء، وينالون كل هذا الثواب..؟ إنهم.. كما يخبر الحق عنهم:

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾﴾

أي: يقولون.. آمنا بك وبكتبك ورسلك؛ فاغفر لنا بفضلك، ونجِّنا من العذاب برحمتك.

هذه أقوالهم، أما أفعالهم وسلوكهم فيخبر عنها رب العزة، مادحًا لهم بذكرها، حيث يقول اللهُ ﷻ:

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

أي: الصابرين علىٰ الطاعات، وعن المعاصي، وفي ساحات الجهاد، وعلىٰ المصائب والنكبات.

والصادقين.. في إيمانهم. والقانتين.. الطائعين لله فيما أمر، وفيما نهىٰ.

والمنفقين.. لكل خير علىٰ مَن يحتاج، دون مَنٍّ ولا أذىٰ، ولا إسراف ولا تبذير.

وفوق كل هذا فهم يقيمون الليل، ويستغفرون ربهم في الأسحار.

هذا، ولمَّا أخبر سبحانه وتعالىٰ بوحدانيته في أول السورة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢]!! واستدل علىٰ هذه الوحدانية.. وأخبر عما أعد للكافرين بها..!! وأخبر ـ كذلك ـ عما أعد للمؤمنين بها..!!

أنتج ذلك ثبوت هذه الوحدانية، ثبوتًا لا شك فيه.

ومن هنا كرر ـ عز وجل ـ هذه القضية بشكل أوضح مما سبق اهتمامًا بها، وعناية بشأنها. فقال اللهُ ﷻ:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

أي: شهد الله وملائكته وأولو العلم من الأنبياء والعلماء، أنه لا إله إلَّا هو المتفرد بالإلٰهية لجميع خلقه، وأن الجميع عبيده وفقراء إليه، مقيمًا للعدل فيما بينهم من شرعه وأمره ونهيه ورزقه. .إلخ.

أيها الكرام.. ادعت اليهود أنه لا دين أفضل من اليهودية..!! وادعت النصارىٰ أنه لا دين أفضل من النصرانية..!! فرد الله عليهم ذلك، ونزلت هذه الآية:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

وهكذا يخبر الله تعالىٰ أنه لا دين عنده يقبله من أحد: سوىٰ الإسلام.

وهو الاستسلام لله فيما بعث به رسله جميعاً، والذي كان آخرهم وخاتمتهم هو محمد ﷺ.

ولذا فمن لقي الله تعالىٰ ـ بعد بعثته سبحانه محمدًا ﷺ ـ بدين علىٰ غير شريعته فليس بمتقبل منه عند الله. وهذا هو الحق الذي لا مراء فيه.

وأهل الكتاب ـ اليهود والنصارىٰ ـ يعرفون أن الدين عند الله الإسلام، ويعرفون أنه الحق؛ إذ جاءهم العلم به في كتبهم قبل تحريفها. ولكنهم بسبب الحسد والبغي، وطلب الرياسة، حملهم ذلك علىٰ المخالفة للخصم في الأقوال والأفعال، وإن كانت علىٰ حق. وبذلك كفروا بآيات الله جميعًا.

وعلىٰ كل حال مَن يكفر بما أنزل الله من الحق، فإن الله سريع الحساب له، سريع المجازاة، والمعاقبة علىٰ كفره.

انتبهوا إلىٰ المولىٰ ﷻ وهو يوجِّه حبيبه ﷺ إلىٰ أدب الدعوة، وحسن المناظرة مع المخالفين حيث يقول له ـ والكلام لكل داع إلىٰ الإسلام ـ..!!

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

أي: فإن جادلوك في أن الدين عند الله الإسلام، أو جادلوك في صحة ما هم عليه، أو جادلوك ليصرفوك عما أنت عليه، فقل لهم: لا فائدة من جدالكم هذا؛ فقد أسلمت وجهي لله، وأخلصت نفسي له، وكذلك: مَن تبعني.

وقل لليهود والنصارىٰ والأميين الذين لا كتاب لهم: أسلموا وجوهكم لله، فقد جاءكم معي من البينات والدلائل ما يقتضي دخولكم في الإسلام..!!

فإن أسلموا: فقد نجوا من الضلال والهلاك، وإن رفضوا فقد بلغت وأديت رسالتك، وحسابهم علىٰ الله.

والله بصير بالعباد يجازيهم علىٰ إسلامهم وعلىٰ كفرهم.

هذا، ولأن في الناس مَن يرفضون دعوة الإسلام، ويكفرون بالله..!! فقد أمر الله عز وجل بتبشيرهم بالعذاب الأليم، حيث قال ﷻ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

أي: كل مَن يكفر بآيات الله، وكل مَن يقتل النبيين، وكذلك كل مَن يقتل الدعاة إلىٰ الحق، وهو دين الله..!! بشِّرهم بعذاب الله الأليم يوم القيامة.

وأول مَن ينطبق عليه هذه القبائح هم اليهود، ويدخل في هذا التهديد كل مَن كان كذلك. وليس هذا فقط، بل كما قال تعالىٰ:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

أي: ضاعت نتائج أعمالهم، واستحقوا اللعنة، وليس لهم ناصر يحميهم، أو يدافع عنهم، في الدنيا والآخرة.

ثم يؤكِّد المولىٰ ـ تبارك وتعالىٰ ـ اختلاف وتخالف أهل الكتاب، ويدعو ـ في ذات الوقت ـ إلىٰ التعجب منهم، ومن أحوالهم، فيقول تعالىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أي: إن تعجب فالعجب من الذين لديهم علم من التوراة، يدعون للتحاكم وفق ما جاء فيها، وقد علموا أن الاحتكام إلىٰ كتاب الله واجب، ولكنهم يرفضون إعراضًا؛ لأن هذه طبيعتهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

وهذا الإعراض غرهم فيه ودفعهم إليه أنهم كذبوا علىٰ الله وصدقوا أنفسهم، إذ قالوا لن تمسنا النار، حيث لن نعذب فيها إلَّا أيامًا معدودات.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

أي: كيف يكون حالهم يوم القيامة؟ وكيف تكون إجابتهم حينما يسألون عما كذبوا علىٰ الله فيه؟ وكيف يعللون قتلهم الأنبياء والعلماء؟ والله سائلهم عن ذلك كله، ولن يفلتوا من العقاب العادل جزاء ما فعلوا.

ولأن أهل الكتاب ضلوا، وفسدوا، وأفسدوا..!! ولأن أهل الكتاب خانوا أمانة الدعوة، فقد حول الله النبوة من بني إسرائيل إلىٰ النبي العربي الأمي خاتم النبيين علىٰ الإطلاق.

ولذلك ينبه المولىٰ ـ تبارك وتعالىٰ ـ إلىٰ شكر نعمته علىٰ رسوله ﷺ، وعلى هذه الأمة فيقول الله ﷻ:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

وبعد هذا الابتهال إلىٰ الله والإذعان لقدرته، والاغتراف من رحمته، والاعتماد علىٰ عظمته وعزته، يكون النهي الإلٰهي للمؤمنين عن موالاة الكافرين. حيث يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

أي: مَن يرتكب ما نهى الله عنه في هذا ويخالف شرعه، فقد برئ من الله، وبرئ الله منه. إلَّا مَن خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم.. فله أن يتقيهم بظاهره، لا بباطنه ونيته، ويحذركم الله نقمته إذا واليتم أعداءه وعاديتم أولياءه.

وإلىٰ الله ـ في النهاية ـ مرجعكم.. فيجازي كل واحد منكم بعمله فاحذروه.. !!

ولا تتعرضوا لغضبه بمخالفة أحكامه، وموالاة أعدائه.

ثم ينبِّه ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ عباده: علىٰ أنه عالم بجميع أمورهم، قادر علىٰ معاجلتهم بالعقوبة، وذلك حتىٰ يخافوه، ولا يرتكبوا ما نهىٰ عنه، حيث يقول لحبيبه محمد ﷺ:

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

أي: قل لهم.. مهما أخفيتم ما في صدوركم ـ مما لا يرضي الله، ومن ذلك ولايتكم للكفار ـ أو تظهروه، فإن الله يعلمه.

بل أكثر من ذلك حيث لا يغيب عنه مثقال ذرة في السمٰوات والأرض، والله علىٰ كل شيء قدير؛ فيعاقبكم ويجازيكم، وهذا تهديد شديد ووعيد بليغ من عذاب الله تعالىٰ.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ۖ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

أي: تتمنىٰ كل نفس لو أنه كان بينها وبين ذلك اليوم وأهواله ـ حينما تعاين جزاء ما عملت ـ مسافة بعيده، فلا تغفلوا عن مرضاته سبحانه، ولا تتعرضوا لسخطه.

ولذلك يحذرهم ﷻ من غضبه، ويدعوهم لطلب مغفرته وعفوه ورحمته.

ومن رأفته بهم أنه يرشدهم لطريق محبته، كما يبين لهم ـ رأفة بهم وتشجيعًا لهم ـ نتائج محبته. فيقول اللهُ ﷻ:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

أي: إن كنتم تحبون الله، بإيثار طاعته علىٰ أي شيء آخر..!! فعلامة هذا الحب هو اتباع رسول الله ﷺ، في دينه، وأقواله، وأفعاله، وأحواله.

وإذا اتبعتم رسول الله أحبكم الله، ورضي عنكم وغفر لكم ذنوبكم، والله ﷻ غفور لمن تابع رسول الله ﷺ، رحيم به. ثم قال تعالىٰ للنبي ﷺ:

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

أي: قل لكل أحد من الناس، عامهم وخاصهم.. أطيعوا الله بالعمل بكتابه، والرسول بطاعته في حياته، وطاعة سنته، وبمتابعته بعد وفاته ﷺ. فإن أعرضوا ورفضوا هذه الطاعة فهذا كفر، والله لا يحب الكافرين.

رأينا كيف تحدثت الآيات السابقة عن وحدانية الله، وبيَّنت أن الدين عند الله الإسلام، ووَّضحت أن الإسلام يتحقق بالمتابعة والطاعة.

والآن، تبدأ الآيات الكريمة في تصحيح مفاهيم النصارىٰ عن عيسىٰ عليه السلام؛ حيث إنهم بمفاهيمهم عنه قد انحرفوا انحرافًا بعيدًا عن الإسلام. فيقول المولىٰ ﷻ:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

أي: اختار هؤلاء، وفضَّلهم علىٰ عالمي زمانهم.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: قالت اليهود.. نحن من أبناء إبراهيم وإسحق ويعقوب، ونحن علىٰ دينهم، فأنزل الله هذه الآية.

والمعنى: أن الله اصطفى هؤلاء بالإسلام، وأنتم يا معشر اليهود علىٰ غير الإسلام.

﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

إنهم ذرية صالحة، والله هو السميع لهم العليم بهم، فيصطفي ويختار مَن يشاء، وربك يخلق ما يشاء ويختار.

ثم يقول رب العزة لمحمد ﷺ: واذكر لأهل الكتاب وغيرهم هذه القصة:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾

إمرأة عمران هي أم مريم، وجدة عيسىٰ عليه السلام، وكانت لا تلد، حتىٰ كبرت وأسنَّت، ولكنها ـ ذات يوم ـ دعت الله أن يرزقها ولدًا. فلما حملت به قالت:

اللهم إني نذرت لك ما في بطني محرراً، فتقبل مني يكون خالصًا لعبادتك، خادمًا لبيتك المقدس، إنك أنت السميع لدعائي، العليم بنيتي وصدقي، وتم حملها، ووضعت وليدها.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾

أي: حزنت لأنها كانت تريد أن يكون ذكرًا، جلدًا قويًّا، يقوم علىٰ خدمة بيت المقدس، ولكنها أعلنت رضاها بعطاء الله؛ حيث سمتها مريم، ومعناها العابدة.

وقالت: هي لك ولخدمة بيتك يا رب، وأنا أتقرب بها إليك، فاعصمها، وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم الملعون. ورضي الله تبارك وتعالىٰ، بهذا النذر الطيب.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

أي: تقبلها الله، وأقامها مقام الذكر في خدمة بيت المقدس، وأنشأها في هذا الجو الصالح والمكان المقدس نشأة حسنة، ورباها تربية صالحة.

ثم جعل سبحانه زكريا عليه السلام زوج أختها كافلًا لها، وقائمًا علىٰ مصالحها.

والعجيب أنه لمَّا رأى زكريا ذلك، وشاهد فضل الله تعالىٰ علىٰ عباده الصالحين، طمع في الولد، حتىٰ وإن كانت زوجته عاقر، وهو شيخ كبير، ولكنها الطبيعة البشرية.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾

في هذا المكان الطاهر دعىٰ زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه الولد الصالح، والذرية الطيبة، واستجاب الله دعاءه.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾

أي: خاطبته الملائكة مشافهة ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾، **قائلة:** إن الله أجاب دعوتك، وقضىٰ حاجتك، ويبشرك بولد اسمه يحيىٰ.

وهذه أوصافه: مصدقًا ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مصدقًا بعيسىٰ.

﴿وَسَيِّدًا﴾ أي: شريفًا، رفيعًا في خلقه ودينه .﴿وَحَصُورًا﴾ أي: معصومًا من الذنوب. ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهذه بشارة بالنبوة، بعد البشارة بالولادة.

وهنا.. تعجَّب زكريا من وجود الولد بعد هذا الكبر..!! حيث:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾

وهو سؤال مَن يفرح بعد تحقق الطلب، وإجابة الدعوة.

ولهذا: كان الجواب أن ذلك من الأفعال العجيبة؛ فالله لا يعجزه شيء، ولا يتعاظم عليه أمر.

هذا.. ولما تاقت نفسه إلىٰ سرعة تحقق هذا الأمر، والتأكد من حدوثه:

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

أي: اجعل لي علامة علىٰ حمل امرأتي، لأتلقىٰ النعمة بالشكر ـ دون تأخير ـ في بادئ الأمر، قال له ربه: سأجعل لك علامة كما طلبت، وهذه العلامة تكون حُبْسَة في لسانك، لا تقدر معها أن تكلم الناس إلَّا بالإشارة، ولمدة ثلاثة أيام فقط، وليس هذا خرسًا، بل هي حبسة لسان عن الكلام مع الناس فقط.

لذلك انشغل فقط ـ خلال هذه المدة ـ بذكر الله، والتسبيح والصلاة؛ شكرًا لنعمته عليك.

والآن، نترك زكريا عليه السلام مع فرحته بهذه البشارة، وشكره لله تعالىٰ عليها.. ونتعرض لذكر قصة مريم عليها السلام بعد ذكر قصة أمها امرأة عمران. حيث يقول عز من قائل:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾

أي: قالت الملائكة لمريم: إن الله اصطفاك أولًا، حيث قبلك من أمك يوم أن قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ [آل عمران: ٣٥] وكان الجواب: فتقبلها ربها بقبول حسن، وطهرك من كل دنس، واصطفاك ثانيًا على نساء العالمين بأن وهب لك عيسى من غير أب، وجعلك آية للعالمين. ثم قالت لها الملائكة:

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

أي: كوني خاشعة لربك، خاضعة لحكمه، ساجدة راكعة، مع الساجدين الراكعين.

ثم يقول رب العزة لحبيبه ﷺ ما فيه دليل للمعاندين على صدق محمد في نبوته، وما فيه هداية للمحبين المتبعين سُنته العاملين بشريعته:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

أي: أن قصة أم مريم، ومريم، وزكريا وزوجته، ما كنت تعرفها يا محمد؛ لأنها من أخبار الغيب السابق، ولكنا أعلمناك بها عن طريق الوحي.

وما كنت معهم حين اتفقوا ـ كما يقول المفسرون ـ على أن يجعلوا أقلامهم التي كانوا يكتبون بها في الماء الجاري، فمن وقف قلمه، ولم يجره الماء، فهو كافلها.

وكان الذي وقف هو قلم زكريا؛ فكفلها من دونهم.

وما كنت معهم كذلك حين تنازعوا واختصموا حول هذه الكفالة لمريم، وكل هذا: لم تعرفه إلَّا عن طريق وحينا لك به.

هذا وبعد ذكر قصة مريم وزكريا، وأم مريم: يبدأ ﷻ في ذكر قصة عيسى عليه السلام. قائلًا:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

أي: يكون وجوده بكلمة من الله كن فيكون، اسمه المسيح عيسى ابن مريم.. ويسمى المسيح؛ لأنه إذا مسح ذا عاهة برئ منها بإذن الله، أو لكثرة سياحته من أجل الدعوة لدين الله، وينسب إلى أمه ابن مريم؛ لأنه لن يكون له أب.

ومع ذلك يكون وجيهًا في الدنيا بالنبوة والطاعة، وفي الآخرة بعلو الدرجة والشفاعة، ومن المؤمنين عند الله. وقالت الملائكة لمريم أيضًا مبشرة:

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

أي: يكلم الناس بكلام الأنبياء في طفولته، وحين يوحى إليه في كهولته، ويكون من الصالحين في قوله وعمله. فلما سمعت مريم بشارة الملائكة لها بذلك:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ﴾ أي: كيف يكون ذلك، ولم يمسسني بشر، حلالًا، أو حرامًا؛ حيث لم أتزوج، ولست بغيًا..؟ أجاب الملك:

﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: هكذا أمر الله، لا يعجزه شيء، إذا أراد شيئًا، قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ويلاحظ أن الملائكة قالت لزكريا: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]. وهنا قالت لمريم: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾.

وذلك لأن ولادة العذراء من غير أن يمسسها بشر، أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ كبير..!!

فكانت عبارة الخلق.. المنبئة عن الاختراع، أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل.

ثم كان تمام هذه البشارة:

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾

ومن تمامها كذلك:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

ومن تمامها ثالثًا:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾

ثم يقول لهم:

﴿... فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾

أي: فاتقوا الله، ولا تكذبوني فيما جئت به، وأطيعوني في امتثال ما أمر الله به، واجتناب ما نهىٰ عنه. ثم قال لهم مؤكدًا عبوديته:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

أي: أنا وأنتم سواء في العبودية لله، ووجوب الخضوع والاستكانة له.

وهذا هو الصراط المستقيم، الذي يؤدي بصاحبه إلىٰ النعيم المقيم.

وهذا كله ـ جاء ـ في معرض بشارة الملائكة لمريم بعيسىٰ عليه السلام.

ثم ينقلنا الله عز وجل.. إلىٰ موقف اليهود من عيسىٰ عليه السلام.

وكأن رب العزة يقول: هذا الذي بشرت به مريم، في شأن ابنها.

فماذا حدث له بعد أن بلغهم رسالة ربه..!!

الذي حدث أنهم كذبوه، وجحدوا رسالته..!!!

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

أي: فلما وجدهم مصممين علىٰ الكفر، مستمرين عليه بحث عن الصالحين فيهم.. قائلًا: مَن ينصرني في الدعوة إلىٰ الله..؟

أجابه الحواريون ـ وهم مَن آمنوا به، وآزروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه ونصروه في دعوته ـ قائلين: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصار دعوة الله معك، لأننا آمنا بالله.

ثم طلبوا من عيسىٰ أن يشهد علىٰ إسلامهم تشريفًا لهم، حيث قالوا:

﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. ثم توجَّهوا لربهم عز وجل قائلين:

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

وهذا تضرع منهم لله سبحانه وتعالىٰ، وعرض لحالهم عليه عز وجل بعد عرضها علىٰ رسوله إظهارًا لصدقهم وطلبًا لمرضاة ربهم.

أي: آمنا بك، واتبعنا رسولك..!! فاكتبنا عندك مع الذين يشهدون لك بالوحدانية ولرسولك بالصدق فيما جاء به.

وإذا كان هذا حال أنصاره الحواريين الذين آمنوا به وصدقوه..!! فما حال الأغلبية.. التي كذبته، وكفرت برسالته؟

تعالوا معي نقرأ ما يخبر به المولىٰ عنهم، حيث يقول:

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

أي: ازدادوا كفراً وعنادًا، ومكرًا وفجورًا، حتىٰ إنهم أرادوا قتل نبيهم عيسىٰ عليه السلام.

ولكن الله تعالىٰ جازاهم علىٰ مكرهم، بأن أفسد سعيهم، ورفع عيسىٰ إلىٰ السماء.

ويلاحظ: أن المكر إذا نسب للإنسان كان بمعنىٰ الخطيئة، وإذا نسب لله تعالىٰ كان بمعنىٰ الجزاء عليها ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي أقوىٰ المعاقبين علىٰ الخطايا.

ثم يوضح ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ كيف فوَّت علىٰ الماكرين من اليهود مكرهم بعيسىٰ عليه السلام، إذ يقول سبحانه:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: منيِّمك، من النوم.

﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ أي إلىٰ السماء حيًّا، وقد رآه رسولنا ﷺ في السماء ليلة المعراج.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي مبعدك عنهم، وعن خبثهم وإيذائهم لك.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ أي المسلمين الذين آمنوا بالله وصدقوا بك من أمتك، أو من غيرها. ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ وكذبوك وجحدوا برسالتك وحرَّفوها من اليهود والنصارىٰ وغيرهم.

وفي يوم القيامة إليّ عودة الجميع، فأحكم بينهم بالعدل فيما اختلفوا فيه؛ ليظهر المحق من المبطل، والمؤمن من الكافر، ويكون الجزاء المناسب. كما قال تعالىٰ:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

وهذا هو عين العدل.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

وهذا هو عين الفضل.

وبعد هذا البيان الإلٰهي والتوضيح الوافي لأمر عيسىٰ عليه السلام وما يكون منه، وما يكون له، يتوجه المولىٰ بالخطاب التشريفي لمحمد ﷺ، حيث يقول له:

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

أي: هذا الذي قصصناه إليك من أمر أخيك عيسىٰ، وحي إليك من الذكر الحكيم، واللوح المحفوظ، لا شك فيه ولا جدال حوله.

لمَّا قدم وفد نصارىٰ نجران إلىٰ النبي ﷺ، وقالوا له: هل رأيت لعيسىٰ مثلًا..؟ إنه خلق بلا أب، ومَن لا أب له فهو ابن الله، فنزل ردًّا عليهم قول الله تعالىٰ:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾

أي: إن شأن عيسىٰ وحالته الغريبة في كونه خلق من غير أب، كشأن آدم في كونه خلق من غير أب ولا أم أيضًا، بل خلق من تراب ابتداءً، قال له: كن.. فكان. وهما ـ مع اختلاف خلقهما ـ يستويان أمام قدرة الله تعالىٰ.

أي: إذا كانت دعوىٰ النبوة تجوز في حق عيسىٰ عليه السلام!! فهي في حق آدم جائزة بطريق الأولىٰ، ولو حدث في حق آدم ذلك: لكان باطلًا، ولهذا فهو في حق عيسىٰ أشد بطلانًا. وهذا الذي ذكرناه هو:

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

أي: لا مجال للشك في صحته من أي أحد، علىٰ الإطلاق.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

أي: مَن جادلك من النصارىٰ في شأن عيسىٰ عليه السلام وأنه ابن الله ـ كما يزعمون ـ بعد ما جاءك من العلم والحق الذي عرفوه..!! فقل لهم: هيا بنا نتباهل.

أي: نجمع سويًا نحن وأنتم ﴿أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ في مكان واحد، ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: نتضرع إلىٰ الله في الدعاء.

﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: هلاكه للكاذبين من أي الفريقين في شأن عيسىٰ ونبوته لله سبحانه وتعالىٰ.

فماذا فعلوا..؟ يقول العلماء: لم يُروَ عن أحد موافق أو مخالف، أنهم استجابوا، وفعلوا ذلك. حقًّا..

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾

وهذا أمر واضح، لا لبس فيه، ولا غموض، ولا خفاء! ومن شأنه أن يقود إلىٰ التسليم والإذعان. ثم قال تعالىٰ:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

أي: فإن لم يستعملوا عقولهم، ويتخلوا عن عنادهم، فقد فسدوا، وأفسدوا غيرهم. والله عليم بالمفسدين يجازيهم شر الجزاء.

وبعد أن بَّين الله ﷻ أن الدين عند الله الإسلام..!! وبيَّن ـ كذلك ـ أن اختلاف أهل الكتابين فيه: إنما هو من البغي والحسد..!! وبعد أن بيّن ـ ثالثًا ـ أن الفوز برضوانه طريقه اتباع الرسل عليهم السلام..!!

وبعد أن بيّن ـ رابعًا ـ مبدأ عيسىٰ عليه السلام، ورد أكاذيب أهل الكتاب، وأغاليطهم حوله، وبيان الحق في شأنه.

أقول: بعد هذا كله مما ذكرت آيات السورة. يأمر المولىٰ سبحانه وتعالىٰ بدعوة أهل الكتاب إلىٰ الحق، ومحاورتهم لإقناعهم به، علىٰ النحو التالي:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ...﴾

وفي هذا أمر لأهل الكتاب وغيرهم، أن لا تكون العبادة والطاعة، والتحليل والتحريم إلَّا لله وحده، وأن لا يطيع بعضنا بعضًا في معصية الله.

﴿... فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

أي: فإن رفضوا هذه الدعوة، وتولوا وأعرضوا عن الاستجابه لها، فأعلنوا التزامكم أنتم، واستمراركم في إسلامكم، وطاعتكم لله.

ثم يستنكر رب العزة على اليهود والنصارى هذه المغالطات التاريخية، إذْ يقول سبحانه:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾

ادعت اليهود أن إبراهيم كان يهوديًّا، وادعت النصارى أنه عليه السلام كان نصرانيًّا، وهذا خطأ فاحش حيث لم تنزل التوراة ـ كتاب اليهود ـ على موسى، ولم ينزل الإنجيل ـ كتاب النصارى ـ على عيسى، بل لم يكن موسى ولا عيسى نفسيهما.. إلَّا بعد زمن إبراهيم عليه السلام. ولا يقول ما قلتم عاقل، ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾..!!

ثم يبكِّتهم القرآن الكريم قائلًا:

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

أي: لقد جادلتم بالباطل في أمر محمد ﷺ، وعندكم علم بصفته في كتبكم، وصدقه في دعواه، وكذبتم به..!! فلِمَ تجادلون فيما ليس لكم به علم من أمر إبراهيم عليه السلام.

والله يعلم عنادكم وجدالكم بالباطل، وأنتم جاهلون، والحقيقة التي ينبغي أن تعرفوها أنه:

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾

أي: أنه عليه السلام ما كان يهوديًّا ولا نصرانيًّا كما زعمتم، بل كان حنيفًا مائلًا عن كل دين، إلَّا دين الله. نعم.. كان مسلمًا لله في شأنه كله.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ وقد أشركتم أنتم وغيركم، فكيف يكون منكم..؟

وبعد أن نفى دعواهم الكاذبة في انتسابه عليه السلام إليهم:

بيّن.. أقرب الناس منه، وأحقهم في الانتساب إليه.

حيث قال عز من قائل:

﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

أي: أن أحق الناس به:

أولًا: الذين اتبعوه وآمنوا به في زمانه، وبعد زمانه.

ثانيًا: محمد ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين.

ثالثًا: الذين آمنوا من أمة محمد ﷺ.

وهؤلاء: وليُّهم الله وناصرهم في الدنيا وفي الآخرة.

ولأن أهل الكتاب يعرفون الحق الذي أنتم عليه، والنور الذي أنتم فيه، فإنهم لا يستريحون لذلك، بل يحسد ويحقد ويريدون حرمانكم منه، وصرفكم عنه إلىٰ باطل قوانينهم، وأنظمتهم، وسلوكهم، وأهوائهم. يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

لأن المؤمنين حقًّا لا يطيعونهم، إذْ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق..!!

ومن هنا.. فإثم إضلالهم لغيرهم يعود وبالًا عليهم، وما يشعرون بذلك.

ثم.. لاحظوا هذا السؤال المفحم المباشر:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

أي: لم تكفرون بآيات الله الموجودة في كتبكم، وفيها البشارة بمحمد ﷺ، خاصة: وأنتم تعلمون صدقها، علمًا يقينيًا كالمشاهدة.

وأيضًا هذا السؤال المفحم المباشر الآخر:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾

أي: لِمَ هذا التلبيس منكم، وخلط الحق بالباطل؟، بل كتمانكم الحق أصلًا، وأنتم تعلمونه، وتعلمون أن محمدًا ﷺ جاء به، وأن المسلمين يتبعونه ويلتزمون به.

ثم يفضح الله سرَّهم، ويكشف مكرهم بالمسلمين قائلًا:

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾

أي: قالوا آمِنوا معهم بما جاء به محمد وخالطوهم، ثم شككوهم في دينهم، واكفروا به لعلهم يرجعون عن دينهم، ثم تواصوا فيما بينهم قائلين لبعضهم البعض:

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

أي: لا تطمئنوا إلَّا لبعضكم البعض، ولا تتكلموا بما تعرفون، وما تريدون الوصول إليه من إفساد المسلمين إلَّا فيما بينكم.

ويرد الله عليهم مكرهم، ومثبتًا للمسلمين:

حيث يقول: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: مَن شاء الله هداه، وثبته على الإسلام، ولا يضره كيدكم ومكركم.

وبعد هذا الرد عليهم والتثبيت للمسلمين، يبيِّن لنا ﷻ سبب مكرهم هذا، والدافع لحيلهم الخسيسة: من عدم إيمانهم وكفرهم..!! وعدم بوحهم بأسرارهم..!!

وهو حقدهم أن يؤتي الله أحدًا كتابًا أو حكمة أو فضلًا مثلما آتاهم، أو: خوفهم من إقامة المسلمين للحجة عليهم عند ربهم.

ويرد الله عليهم حقدهم وانحراف فكرهم هذا.. وفي ذات الوقت: يثبت المسلمين، مبينًا أن الفضل بيد الله، ليس بيدهم، يجود به على مَن يشاء من عباده، وكذلك:

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

أي: يجعل رحمته مقصورة على مَن يشاء من عباده.

وقد أضاع أهل الكتاب ما أنعم الله عليهم به من فضل، حيث كفروا بآيات الله، ولم يتبعوا محمدًا ﷺ الذي بشر به أنبياؤهم وجاء وصفه في كتبهم.

ولذلك اختصكم ـ أيها المسلمون ـ برحمته وفضله؛ حيث شرَّف نبيكم على سائر الأنبياء، وهداكم به لأكمل الشرائع .﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

بعد أن وضَّحت الآيات الكريمة خيانة أهل الكتاب وحيلهم ومكرهم بخصوص الدين..!! تبين الآيات التالية: خيانتهم وحيلهم ومكرهم بخصوص الأموال.

حيث يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ۖ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

أي: في أهل الكتاب الأمناء، وفيهم ـ كذلك ـ الخونة، المماطلون في أداء الحقوق لأصحابها. والسبب في خياناتهم هذه، أنهم يقولون هذا الكلام.

والأميون مَن ليسوا علىٰ دين اليهود من العرب، أو النصارىٰ، أو غيرهم.

والمعنىٰ: أنهم يقولون ليس علينا حرج أو إثم في أكل أموال غير أبناء ديننا، وأن الله أحلها لنا، حتىٰ ولو كانت أمانات، وهذا كذب وافتراء منهم علىٰ الله ﷻ متعمّد.

ولذلك يرد الله عليهم قائلًا:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

أي: بلىٰ عليهم إثم في فعلهم هذا، وتبريرهم له، فإن مَن أوفىٰ بما عاهد الله عليه: فقد اتقىٰ الله بترك الخيانة والغدر. والله يحب المتقين.. الذين يؤدون الأمانات، والذين يوفون بالعهود.

ويدخل في التقوىٰ: طاعة الله، والابتعاد عن محارمه.

ويدخل في الوفاء بالعهد: ما عاهد أهل الكتاب ربهم عليه من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بُعِث.

ثم يهدِّد ربنا ﷻ مَن إذا: حدَّث كذب، أو اؤتمن خان، أو عاهد غدر.

حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

أي: إن الذين يأخذون متاعًا قليلًا تافهًا من متاع الدنيا الزائل، ويتركون ما عاهدوا الله عليه، وأكدوه بأيمانهم.. من الإيمان بمحمد ﷺ، المصدق لما معهم.

هؤلاء: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمْ﴾ أي: لا نصيب لهم في الآخرة، من رحمة الله ونعيمه.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ كلامًا يسرهم ويسعدهم به.

﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ نظرة عطف عليهم، ورحمة بهم.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: ولا يطهرهم من الذنوب ؛ فيعفو عنهم.

ولهم ـ فوق كل ذلك ـ عذاب أليم شديد الإيلام.

وكما أن في أهل الكتاب الخائن الذي لا يؤدي أمانة، ولا يفي بعهد، فإن فيهم من يكذبون علىٰ الله تعالىٰ، ويحرفون كلامه سبحانه. يقول الله تعالىٰ:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

أي: يحرفون التوراة، ويبدلون ما أنزل الله فيها، وينسبون ما يقولون بعد التحريف إلىٰ الله، وهذا كذب، وهم يعلمون أنه كذب، وأنهم يكذبون علىٰ الله.

ساء ما فعلوا.. وما يفعلون..!!

هذا. .ويستمر المولىٰ سبحانه وتعالىٰ، في الرد عليهم من جهة، وتصحيح مفاهيمهم وأغاليطهم وتحريفاتهم وأفعالهم من جهة أخرى، حيث يقول ﷻ:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

وقد نزلت هذه الآية في مواجهة وفد نصارىٰ نجران؛ لترد علىٰ عبادة النصارىٰ لعيسىٰ عليه السلام، وتبطل مزاعمهم في ذلك.

والمعنى: ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة من فضله، أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله، أو اعبدوني مع الله.

بل يقول لهم: كونوا ربانيين، أي: علماء عاملين، تعلمون الناس الخير، وتعرفونهم أمور دينهم. أي: أن كلامكم هذا عن عيسىٰ عليه السلام: كذب وادعاء باطل.

كـذلـك..!! ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

أي: كما لا ﴿يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٩].. لا يأمرهم كذلك أن يتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا من دون الله. مثلما اتخذ الصابئون الملائكة، واتخذ اليهود عزيرًا، واتخذ النصارىٰ عيسىٰ.

هل يعقل: أن يأمر مَن آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أحدًا من المسلمين بالكفر..؟!!

كلا.. وألف كلا.. !!

ثم يبيِّن الله وحدة الأنبياء، واجتماعهم على دين الله الواحد.. معرِّضًا باليهود وانحرافهم، وتفريقهم بين رسل الله. إذْ يقول عز من قائل:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

أي: أخذ الله العهد والميثاق على النبيين أنهم إذا جاءهم رسول مصدق لما معهم؛ ليؤمنن به، ولينصرنه في دعوته، مهما آتاهم الله من كتاب وحكمة.

والمراد بهذا الرسول: هو محمد ﷺ.. ومن باب التقرير أكد الله عليهم ذلك.

والإصر: هو العهد القوي الثقيل.

والمعنى: قال ربنا ﷻ للأنبياء بعد أن أخذ عليهم العهد بمتابعة محمد ﷺ: أأقررتم بذلك، وقبلتم عهدي الثقيل على هذا..؟ وفي هذا التقرير دلالة على أن المتابعة بالحق والخير أمر شاق، لا يستطيعه إلَّا مَن زكَّى الله نفسه.

نسأل الله أن يُزكِّي نفوسنا، وأن يؤتها تقواها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

تعالوا بنا نتابع ماذا قال الأنبياء عليهم السلام لربهم..؟

قالوا: أقررنا واعترفنا،وأخذنا عهدك.

وهنا.. قال لهم ربهم: اشهدوا على بعضكم البعض بهذا الإقرار.. وأكد ذلك الإشهاد - تخويفًا لهم من الرجوع عن عهدهم - باشتراكه سبحانه معهم فيه، حيث قال: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ على هذا العهد.

ثم هدَّد الذين يخلفون الوعد، وينقضون العهد، ويخونون الأمانة. بقوله تعالى:

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أي: فمن أعرض بعد هذا الميثاق، وتولى وخالف بعد هذا البيان؛ فهو فاسق متمرِّد كافر. وهذا تهديد للمخالفين أوامر الله، ووعيد لهم بالعذاب الشديد.

ماذا يريد هؤلاء؟ وبالذات اليهود منهم، الذين قالوا: كان إبراهيم عليه السلام يهوديًّا..؟

وأيضًا النصارى منهم، الذين قالوا: كان إبراهيم عليه السلام نصرانيًّا..؟

وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وهم الذين ينكرون ـ أيضًا ـ نبوة محمد ﷺ، فماذا يريدون..؟

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

أيريدون دينًا غير إسلام لوجه الله، الذي هو دين الله..؟ في الوقت الذي أسلم له سبحانه مَن في السمٰوات والأرض من الجن والإنس طوعًا بقلبه وإرادته ورغبة وكرهًا لأنه تحت سلطان الله وقهره، لا يستطيع أن يمانع أو يخالف سلطان الله. كما أنهم لا يفرون من الله تعالىٰ؛ حيث إنهم إليه يرجعون فيجازيهم علىٰ رغبتهم السيئة هذه.

هذا، ولمَّا أخذ ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ الميثاق علىٰ النبيين وأقروا به..!! وعرف ذلك الميثاق أقوامهم من بني إسرائيل، ورفضوا الإلتزام به، وابتغوا دينًا غير الإسلام..!! أمر الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ وأمته أن يُعلنوا إيمانهم بالله تعالى ورسله جميعًا، وكتبه التي أنزلها عليهم. وأن يُعلنوا كذلك إسلام وجوههم لله تعالى، ورضاهم بهذا الدين القيم.

فقال الله ﷻ:

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

وعلىٰ هذا فالمؤمنون من أمة محمد ﷺ يؤمنون بالله، وبكل ما أُنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله، لا يفرِّقون بين أحد منهم، وهم في هذا كله مسلمون لله ﷻ.

وهذا هو الحق الذي لا بديل له.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

أي: ومَن يريد غير الإسلام دينًا له فلن يقبل منه **أولًا** .وهو ـ **ثانيًا** ـ في الآخرة من الخاسرين، الذين خسروا أنفسهم وأعمالهم.

وفوق ذلك، فقد ضل.. وظلم نفسه. واستحق المهانة والعذاب. وإلَّا..

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

هل يعقل أن يهدي الله تعالىٰ مَن كفر بعد أن آمن، وشهد أن الرسول حق، وقامت عليه الحجج والبراهين بصدق الرسول وما جاء به، وظلم نفسه بذلك.

كلا.. وألف كلا.. !!

وهذا هو العدل ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وليس هذا فقط، بل يقول الله ﷻ:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾

أي: مَن ارتد إلىٰ الكفر بعد إيمانه.. جزاؤهم العادل، أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

واللعنة: هي الطرد من رحمة الله، ودخولهم جهنم خالدين فيها لا يخرجون منها، ولا هم يُنظرون، فيستريحون فيها بتأخير العذاب عنهم، ولو ساعة.

ويفتح الله باب فضله ورحمته علىٰ مَن تاب، وعاد إلىٰ الإيمان، وأصلح نفسه وعمله، بقوله تعالىٰ:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

أما الذين كفروا بعد إيمانهم، ولم يتوبوا، ولم يعودوا بل ازدادوا كفرًا، فيقول عنهم رب العزة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾

أي: لن تقبل توبتهم عند الموت. وكذلك لن يقبل منهم بعد الموت فداء لأنفسهم من عذاب الله، عند معاينة العذاب. وأيضاً يقول رب العزة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

وبهذا بين الله عز وجل ما لا ينفع الكفار، ولا يقبل منهم، بعد أن اغتروا به، وخدعوا فيه. ولذلك يعقب عليه سبحانه وتعالىٰ ببيان ما ينفع المؤمنين ويُقبل منهم، بعد أن اكتسبوه من حلال، وأنفقوا منه علىٰ حبهم له. حيث يقول ﷻ:

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

أي: لن تنالوا بر الله وثوابه، وجنته، حتىٰ تكون نفقتكم في سبيل الله من أموالكم التي تحبونها، لأنه ـ كما يقولون ـ لا وصول إلىٰ المطلوب، إلَّا بإنفاق المحبوب.

قال الحسن: كل مَن تصدق ابتغاء وجه الله بما يحبه ولو ثمرة، فهو داخل في هذه الآية.

ويزيد الله ﷻ في الحث علىٰ الإنفاق والتأكيد علىٰ ثوابه بقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أيَّ شيء مهما كان، فإن الله به عليم، يجازي عليه صاحبه خيرًا منه.

وبعد أن بيّن ربنا ﷻ ما لا ينفع الكفار، ولا يُقبل منهم بعد أن اغتروا به، وخُدعوا فيه.

وبيّن ما ينفع المؤمنين ويقبل منهم، بعد أن اكتسبوه من حلال، وأنفقوا منه ـ في سبيل الله ـ علىٰ حبهم له، نقرأ كلام ربنا الحكيم الخبير، إذ يقول:

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾

وسبب نزول هذه الآية: أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: تزعم أنك علىٰ ملة إبراهيم، وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل وألبانها، وأنت تأكل ذلك، فلست علىٰ ملة إبراهيم.

فرد الله عليهم وبين لهم أن كل الطعام كان حلالًا لإبراهيم عليه السلام، ولبني إسرائيل من بعده، ولم يُحرم لحوم الإبل وألبانها إلَّا إسرائيل، وهو يعقوب علىٰ نفسه خاصة.

كل ذلك من قبل أن تنزل التوراة، فلما نزلت التوراة حرَّمت ما حرَّمت.

ثم تحدَّاهم ربنا أن يأتوا بالتوراة ويقرؤنها ليثبتوا خلاف هذا.

والذي حدث أيها الكرام: أنهم خافوا من افتضاحهم؛ فلم يأتوا بها، وبذلك فقد كذبوا. ولذلك قال تعالىٰ:

﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

نعم، وأي ظلم أكبر من الكذب علىٰ الله ﷻ. ثم يأمر الله تبارك وتعالىٰ نبيه أن يُعلنها صريحة عالية مدوية:

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

حقًّا، ومَن أصدق من الله حديثا؟!!

وعلى ذلك فآمنوا بالله، واتبعوا ملة إبراهيم التي أنا عليها، فقد كان إبراهيم حنيفًا، أي: مائلاً عن كل دين إلَّا الإسلام، وما كان أبدًا من المشركين بالله تعالىٰ.

ولأن الحج إلىٰ البيت الحرام بمكة المكرمة مرتبط بسيدنا إبراهيم وملته، فإن الله عز وجل يخبرنا في الآية التالية: أن أول بيت وضع لعبادة عموم الناس هو الكعبة، التي بناها إبراهيم، الذي يزعم اليهود والنصارىٰ أنهم علىٰ ملته، ومع ذلك لا يحجون إلىٰ البيت الذي بناه بأمر الله، ودعا الناس إلىٰ حجه وزيارته. يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

وقد نزلت هذه الآية، لمَّا قال اليهود للمسلمين.. إن قبلتنا قبل قبلتكم.

والمعنىٰ: أن الكعبة هي أول بيت وضع متعبدًا للناس في الأرض ذو بركة علىٰ مَن يتجه إليه، وهداية للعالمين؛ لأنه قبلتهم ومقصدهم جميعًا.

هذا البيت، كما أخبر تعالىٰ أن:

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

أي: فيه دلائل واضحات علىٰ احترامه، ومزيد فضله.. ومن هذه الآيات: الحجر الذي قام عليه إبراهيم، وهو يبني الكعبة، وعليه آثار أقدامه. وأَمن مَن دخله، ونجاته من كل سوء.

وواجب لله علىٰ مَن ملك من الناس الزاد والراحلة، الفائضين عن حاجة مَن تجب عليه نفقتهم الحج إلىٰ بيت الله الحرام.

ومَن أنكر فرضية الحج، أو كفر بالله تعالىٰ، فإن الله غني عنه، وعن العالمين من الإنس والجن والملائكة، وعن عبادتهم.

ثم يقيم ربنا ـ تجلَّت عظمته ـ علىٰ أهل الكتاب الحجة في مخالفتهم بقوله تعالىٰ:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾

أي: لا يوجد سبب من الأسباب يدعوكم إلىٰ الكفر بآيات الله الظاهرة، المنزلة علىٰ

رسوله ﷺ، والله شهيد علىٰ أعمالكم المخزية، وسيجازيكم عليها، فخافوه واتقوه ولا تكفروا. وأكثر من هذا:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

أي: لِمَ تمنعون الناس عن الإسلام..؟ ولِمَ تصدون مَن آمن بالله عن الإلتزام بدينه، والدعوة إليه، تحقيقاً للعدل والسلام في دنيا الناس؟

هل تريدونها ـ أي دعوة الإسلام ـ مِعوجَّة بحصركم الإسلام في العبادات والروحانيات، وعزلها عن الحياة والتأثير فيها، والتوجيه لها...؟

تفعلون هذا، وأنتم تشهدون بما تعرفون من كتبكم أن الإسلام هو الحياة، وأن الحياة لا تكون إلَّا بالإسلام.

وعلىٰ كلٍّ، فليس الله بغافل عما تعملون، وما تقوم به مؤسساتكم وأنظمتكم المعادية الكافرة للحيلولة دون هذا الإسلام وانتشاره وتطبيقه، وانتصار دعاته في حماية الحق والدفاع عن أهله، ولهذا.. سيجازيكم عن كل ذلك بما تستحقونه.

بعد هذه المواجهة الشديدة الواضحة مع أهل الكتاب، يفسِّر لنا المولىٰ مواقفهم ويبين لنا ما ينبغي أن نستعصم به، حيث يقول جل شأنه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

وهكذا، يُحذرنا الله تعالىٰ من طاعة بعض أهل الكتاب الذين كل رغبتهم أن يُخرجوا المؤمنين من دينهم إلىٰ الكفر بالله تعالىٰ، ولولا أن بعض المؤمنين يطيعون أهل الكتاب؛ فينصرفون عن دينهم، ويصبحون حربًا علىٰ بلادهم وإخوانهم في الدين.. !! لَمَا نهىٰ الله بقرآن يُتلىٰ إلىٰ يوم القيامة عن ذلك، ولما تعجب ربنا ﷻ واستنكر.. حيث يقول لهؤلاء الذين يطيعون:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

أي: كيف يحدث ذلك منكم، والقرآن يُتلىٰ عليكم، وفيه الدلائل الواضحات التي تعصم من هذا الكفر، وفيكم ـ كذلك ـ رسول الله ﷺ بسنته وسيرته يزيح عنكم الشبهات، ويوضح لكم الآيات.

إن هذا.. لا ينبغي أبدًا، فاعتصموا بالله، ولا تفعلوا ذلك، حيث إن مَن يجعل ربه ملجأً وملاذاً عند الشبه والفتن، يحفظه الله.

ثم شرع ﷻ في بيان ما يكمل المؤمنين في أنفسهم.. بقوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

هذا أمر من الله بتحقيق التقوىٰ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ بأن يُطاع فلا يعصىٰ، ويُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا يُنسىٰ.

وكذلك في الآية نهي لنا أن نموت علىٰ غير الإسلام، ويكون ذلك بأن نحافظ علىٰ الإسلام وتعاليمه؛ لنموت عليه.

لأن عادة الكريم.. أنه مَن عاش علىٰ شيء مات عليه، وبعث عليه.

وكذلك لتكميل المؤمنين في أنفسهم.. يقول عز شأنه:

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

أي: تمسكوا أيها المؤمنون بدين الله، ولا تتفرقوا بعد التشرف بالدخول فيه، والانتساب إليه. واذكروا أيها المؤمنون.. إنعام الله عليكم، إذ كنتم قبل الإسلام، أو بغيره أعداء، فجمع بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته عليكم إخوانًا في الدين والولاية والنصرة.

وكنتم ـ كذلك ـ علىٰ حافة حفرة من النار قبل الإيمان، ليس بينكم وبين الوقوع فيها.. إلَّا أن تموتوا كفاراً؛ فأنقذكم منها بالإيمان.

وهكذا ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلىٰ الصواب، وما يُنال به الثواب.

وبعد أن أرشدنا ربنا إلىٰ ما يُعيننا علىٰ تكميل أنفسنا، والوصول بها إلىٰ طريق مرضاته.. !!

يرشدنا سبحانه.. إلىٰ ما يُعيننا علىٰ أن نساعد به غيرنا لبلوغ هذا الكمال.. فيقول اللهُ تعالىٰ:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

أي: ولتكن منكم جماعة يدعون إلىٰ الخير كلُّ الخير، وهو ما وافق الكتاب والسنة، وأصلح البلاد، وأسعد العباد.

ويأمرون بالمعروف.. كلُّ المعروف، وهو ما أمر به الشرع أو أباحه.

وينهون عن المنكر.. كلُّ المنكر، وهو ما نهىٰ عنه الشرع، أو حرمه.

وهؤلاء هم المفلحون، الفائزون برضوان الله تعالىٰ.

ويلاحظ: أن هذا الموضوع.. فرض كفاية، يقوم به البعض، فيسقط الإثم عن الجميع، ولكن لو تركه الجميع أثمت الأمة كلها.

ويلاحظ أيضًا: أن أمة يقوم بعْض أفرادها بمهمة إرشاد الغير إلىٰ الخير: لا ينبغي لها أن تكون كالأمم السابقة التي فشلت في هذه المهمة. ومن هنا.. يقول عز وجل:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾

أي: لا تكونوا أيها المؤمنون، كالذين تفرقوا عن دينهم، واختلفوا فيه، من بعد ما جاءتهم الآيات الواضحات، الموجبة للاتفاق علىٰ كلمة الحق.

وبسبب هذا التفرق والاختلاف.. كفَّرَ بعضهم بعضًا، وهؤلاء لهم عذاب عظيم.

ومتىٰ يكون ذلك..؟ يكون كما أخبر الحق سبحانه:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

يعني: في يوم القيامة، تبيض وجوه أهل الحق والإيمان، وتسود وجوه أهل الباطل والكفران.

وللمؤمن نوره، ولو كان أسود اللون.. !! وللكافر ظلمته، ولو كان أبيض اللون.. !! حيث العبرة ببياض القلب أو سواده.

أي: فأما الذين اسودت وجوههم يوم القيامة، فيقال لهم توبيخًا وتبكيتًا: لِمَ كفرتم بمحمد ﷺ حينما بُعث، وذلك بعد أن كنتم مؤمنين به قبل مبعثه، حسبما كنتم تعرفون من أوصافه، وصدقه في كتبكم..؟

علىٰ كلِّ حال ذوقوا العذاب، واخلدوا فيه؛ بسبب كفركم هذا. ثم أخبر تعالىٰ:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

أي: وأما الذين ابيضت وجوههم يوم القيامة فلا يقال لهم ما يُعكِّر صفوهم، بل يقال لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ [الزمر: ٧٣].

ثم.. يدخلون الجنة بفضل الله ورحمته، ويقيمون فيها أبد الآبدين.

ثم يقول رب العزة لحبيبه ﷺ:

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾

أي: هذه الآيات السابقة المشتملة على نعيم الأبرار، وتعذيب الكفار.. نتلوها عليك بما فيها من حق وعدل، إعلامًا لك وللمؤمنين بأمور الدنيا والآخرة.

وما يريد الله أن يظلم العالمين، وما يفعل ذلك.. !! بل العدل فعله.. كما أن العدل اسمه، سبحانه وتعالى. ولم لا يكون ذلك..؟

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩﴾

نعم.. لله ما في السمٰوات وما في الأرض، ملكًا وخلقًا وعبيدًا. وإلىٰ حكمه وقضائه ومشيئته ترجع الأمور كلها.

ما يزال ربنا ﷻ يتعطَّف علىٰ عباده المؤمنين، فيثبتهم علىٰ الحق والدعوة إلىٰ الخير.. حيث يقول لهم:

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠﴾

والمعنىٰ: أنتم يا أمة محمد ﷺ خير أمة أظهرتها في الوجود، لنفع الناس وخيرهم؛ لأنكم.. تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله.

وأنتم ـ كذلك ـ علىٰ هذه الخيرية، ما دمتم متصفين بهذه الصفات ومحافظين عليها.

ولمَّا مدح الله تعالىٰ أمة محمد لمحافظتها علىٰ هذه الصفات، ذم أهل الكتاب وأنَّبهم حيث إنه لو آمن أهل الكتاب بمحمد ﷺ، وما جاء به لكان خيراً لهم مما هم فيه من: طلب الرياسة، وحب الدنيا، والكبر، والحسد.. إلخ.

ولأنهم لم يؤمنوا فهم بالتالي: لا يأمرون بمعروف، ولا ينهون عن منكر، بل يحاربون المعروف، ويشيعون المنكر. ولذا لا خيرية فيهم، ولا خير منهم.

ومع ذلك، وللإنصاف، فإن قليلًا منهم يهتدي فيؤمن بالله، وما أنزل عليهم، وما أنزل علىٰ محمد ﷺ.

ولكن أكثرهم وغالبيتهم علىٰ الضلالة والفسق والعصيان فلا تخافوهم.. !!

فهم كما أخبر الله عنهم:

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾

أي: ضررًا جزئيًّا بسيطًا لا يصل أبداً ـ بإذن الله تعالىٰ ـ لدرجة القضاء عليكم، وإنهاء وجودكم.

وإذا حدث قتال بينكم ـ يا مؤمنين ـ وبينهم لا يثبتون أمامكم، بل يولوكم الأدبار، أي يفرون منهزمين، ولا يكون لهم نصر عليكم أبدًا. وهذه بشارة عظيمة للمؤمنين، يوم أن يحققوا في أنفسهم وبأنفسهم الإيمان. وبخاصة مع اليهود الذين وصفهم الله بقوله:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

أي: لزمتهم وفرضت عليهم الذلة أينما وجدوا، في كل دولة يعيشون في ظلها، وخوفهم الدائم فيها.. مما يضطرهم إلىٰ فعل الذليل من الأعمال والأحوال؛ نفاقاً واتقاءً لأي شر يلحق بهم.

ولا ترفع عنهم هذه المذلة.. إلَّا بواحد من أمرين:

حبل من الله، أي: إمداد من الله لهم، و سلطان يُعطيه سبحانه إياهم علينا، بسبب ذنوبنا وظلمنا، وبُعدنا عن الإيمان.

أو حبل من الناس، أي: إمداد من الناس، كما هو مشاهد من مساندة قوى الظلم لهم في تمكينهم، وتخاذل أهل الحق عن قطع حبل المودة لهم، والخوف منهم، والتعاون معهم.

وكما لزمتهم الذلة، فقد لزمهم غضب الله ﷻ، ويرجعون بعقابه الأليم يوم القيامة.

وكذلك: لزمهم خوف الفقر، حتى مع غناهم، وامتلاكهم لبيوت المال في العالم.

وكانت هذه الذلة لهم والغضب عليهم والمسكنة فيهم؛ لأنهم كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءهم؛ حيث إن من طبيعتهم ارتكاب المعصية وممارسة العدوان.

بعد هذا يؤكِّد سبحانه وتعالىٰ أنهم:

﴿لَيْسُوا سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾

أي: ليسوا على شاكلة واحدة، حيث إنه: كما أن فيهم مَن ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١].

ففيهم كذلك جماعة مستقيمة ثابتة على الإسلام قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه متبعة لنبيه ﷺ، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم خلال قيام الليل.

وليس هذا فقط.. !! بل إنهم كما قال تعالىٰ:

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾

أي: هؤلاء الموصفون بهذه الصفات هم من جملة عباد الله الصالحين.

ثم يطمئن ربنا تبارك وتعالىٰ أصحاب الطاعات، والمسارعين في الخيرات على حفظ حقوقهم، وعدم ضياع ثواب أعمالهم.. بقوله جل شأنه:

﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

أي: والذي يفعله هؤلاء الصالحون من أهل الكتاب، أو من غيرهم من المسلمين من خير ـ مع الله، أو مع الناس ـ فلن يضيع ثوابه، أو يحرموا أجره أبدًا.

حيث أنه لا يخفى عليه سبحانه أمرهم، ولا يضيع لديه ثوابهم، بل يجازيهم أعظم الجزاء.

ومن تكريم الله لعباده المؤمنين الصالحين.. أنه يعمل على تثبيتهم على ما هم فيه، وإراحة أنفسهم بالحق الذي هم عليه.. وذلك بكل السبل والوسائل التي تحقق ذلك.

وقد يكون ذلك أحيانًا ببيان بعض أحوال أعدائهم، وكشف هوانهم على الله تعالىٰ، وخيبة أملهم بضياع ما يعتمدون عليه، ويستندون ـ في كفرهم بالله ـ إليه.

ومن ذلك ما نقرؤه الآن سويًا، حيث يقول عز من قائل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾

أي: لا ينفع الكفار ولا يدفع عنهم عذاب الله تعالىٰ دفع الأموال، ولا حماية الأولاد، التي كانوا يظنون أنها تنفعهم.

وهؤلاء داخلون في النار ليس لهم غيرها، مقيمون فيها لا يخرجون منها أبدًا.

ويضرب المولىٰ سبحانه ـ مثلًا- لما كانوا ينفقون في الدنيا وهم يظنون أنه نافعهم، وهو في الحقيقة ليس بنافعهم، فيقول ﷻ:

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

أي: إن الذين ينفقون من أموالهم، حال كفرهم بالله، مهما كان قصدهم بإنفاقها.. فهي: مثل ريح، فيها برد شديد، في يوم عاصف، أصابت أرض قوم، آنَ أوانُ حصاد ثمارها، فأهلكته؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بالذنوب والمعاصي.

وليكن معلومًا جيدًا، وواضحًا جدًّا أنه: ﴿لَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فأصحاب الزرع كان إهلاك ثمارهم عقوبة لهم علىٰ معاصيهم، والمنفقون من أهل الكفر لم تقبل نفقاتهم، لعدم إيمانهم بالله تعالىٰ.

لاحظوا أن فيما قرأنا من الآيات الكريمة عن هؤلاء الكفار وفعلهم فيه: التحذير لنا، والتنبيه الشديد علىٰ عدم الوقوع فيما وقعوا فيه من أخطاء.. !! حتىٰ لا ينالنا ما ينالهم من عقاب.

بل أكثر من هذا، حيث ينهانا رب العزة أن نتخذ من هؤلاء الكافرين.. بطانة من الخبراء والمستشارين نُطلعهم علىٰ أسرارنا، ونكشف لهم أحوالنا وجميع أمورنا، لِمَا في ذلك من الخطورة علينا. حيث يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

وذلك لأنهم ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي: لا يقصرون في إفساد دينكم أيها المؤمنون، بتشويه تعاليمه وانتقاص صلاحيته، كما لا يقصرون في إفساد أمركم، حيث يسعون بالإيقاع بينكم، وتفريق كلمتكم، وتوهين قوتكم، وإضعاف وحدتكم بما يملكون، ويستطيعون من المكر والخديعة.

وما كل ذلك إلَّا لرغبتهم الشديدة، في إضراركم ديناً ودنيا أشد الضرر وأبلغه.

وهم مع ضبطهم لأنفسهم، وكتمانهم لعداوتهم لكم: ينفلت من ألسنتهم ما يُعلم به

بغضهم للمسلمين، حتىٰ ولو علل بعضهم، ما يظهر من ذلك بأنه (زلة لسان)، ومع كل ذلك: فإن ما تخفيه صدورهم من البغض لدينكم، والعداوة لكم، أكبر مما قد ظهر علىٰ صفحات وجوههم، وزلات ألسنتهم.

وقد وضحنا لكم أيها المؤمنون الآيات الدالة علىٰ وجوب الإخلاص لله تعالىٰ، وموالاة أوليائه، والحذر من أعداء الإسلام، وعدم اتخاذهم بطانة لكم ومستشارين.

وهذا التوضيح من أجل أن تعقلوا هذا الأمر فتفهموه جيدًا، وتعرفوا أضراره عليكم منهم؛ فتلتزموا فيه بتعاليم ربكم.

وبعد هذا التوضيح ينبِّه الله المؤمنين علىٰ خطئهم في موالاة أعدائهم، وعدم البراءة منهم والقطيعة لهم،والبعد عنهم. حيث يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

أي: ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون تحبون أصنافًا من دونكم، وهم لا يحبونكم، بل تبذلون محبتكم لأهل البغضاء فتجعلونهم بطانة، وهم لكم أعداء.

كما أنكم تؤمنون بكل كتاب أنزله الله علىٰ رسول من رسله الكرام، وهم لا يؤمنون بل ينافقون، وإذا تقابلوا معكم أو اجتمعوا بكم ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ وأظهروا لكم من الأقوال ما يطمئنكم إليهم ويحببهم إليكم..!!

وإذا فارقوكم، أو خلا بعضهم إلىٰ بعض عضوا أطراف أصابعهم، وأظهروا أشد الغيظ منكم، والحقد لكم، والحنق عليكم.

وفي هذه الآية توبيخ شديد لنا معشر المؤمنين علىٰ محبتنا لمن دوننا من أهل الكتاب، فضلاً عن غيرهم.. !! إذ كأننا ـ بهذا التصرف ـ أضعف منهم في الحق الذي نحن عليه، وهم أصلب منا في الباطل الذي هم عليه.

وبعد هذا البيان التوبيخي، يعلِّمنا ﷻ الموقف الصحيح منهم، وهو عدم موالاتهم، واتخاذ بطانة منهم، وعدم حبهم، أو التودد إليهم.

بل إن الواجب إعلان البغضاء لهم، والقطيعة معهم..

قل أيها المؤمن بلسانك، ولسان حالك لهؤلاء الحاقدين لكم ﴿مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ فإنَّا

لا نُطيعكم، ولا نتخذ بطانة منكم، والله متمُّ نعمه علىٰ عباده المؤمنين، ومكمل دينه ومعلٍ كلمته، ومظهر عباده، فازدادوا غيظًا إلىٰ غيظكم، حتى تهلكوا به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: فيجازيكم عليه في الدنيا، حيث يتحقق خلاف ما تأملون فيه، ويجازيكم عليه في الآخرة بالعذاب الشديد.

ثم يبيِّن الله ﷻ: شدة عداوتهم لنا، وشماتتهم فينا، لنزداد بصيرة بموقفهم منا، وتقوى عزائمنا في موقفنا منهم، فلا نتخذهم بطانة، بل أعداء لنا. حيث يقول عز من قائل:

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

أي: يُحزنهم ما يُفرحكم، ويفرحهم ما يحزنكم، وهذا منتهىٰ البغض منهم، والعداوة لكم.

وأمام موقفهم هذا يدلنا رب العزة على ما إن تحلينا به وتحققنا منه، لا يضرنا كيد غيرنا لنا. وذلك في قوله: إن تصبروا علىٰ الطاعة، وعن المعصية، وعلىٰ ابتلاءات الله لكم وتتقوا الله ـ في ذات الوقت ـ وتجتنبوا محارمه تكونون في معية الله وحفظه، ولا يضركم مكرهم، وخططهم ضدكم شيئًا.

ذلك حيث إنه: عالم ومحيط بمكرهم ضدكم، فيحبطه لهم، وينجيكم منه، ومن ضرره بكم.

وبعد أن نهىٰ الله المؤمنين عن اتخاذ بطانة من دونهم، ووضَّح أسباب ذلك.. !!

وبعد أن وعد المؤمنين ـ كذلك ـ بإحباط مكر الكافرين في حال الصبر والتقوىٰ.. !!

شرع في ذكر قصة «غزوة أحد» وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين، والتمييز بينهم وبين المنافقين. حيث يقول للحبيب ﷺ:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾

أي: واذكر يا محمد حينما خرجت من أهلك بالمدينة تنزل المؤمنين بمراكز وأماكن يقفون فيها لقتال العدو يوم أحد، والله سميع لأقوالكم، عليم بما في نفوسكم.

واذكر كذلك يا محمد:

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

أي: اذكر وقت أن همَّت طائفتان من المؤمنين أن تنصرفا من ساحة المعركة، حينما انسحب منها رأس النفاق بالمدينة وهو: عبد الله بن أبي ابن سلول. ولكن الله عز وجل المتولي أمرهما وأمر الجميع ثبتهما، فلم ينصرفا.

وهذا من فضل الله، الذي نتعلم منه.. أن نسلم كل أمورنا إليه، حيث إن مفاتيح القلوب بيديه سبحانه وتعالىٰ، وأن نتوكل عليه، وألَّا نخالف أمره.

حقًّا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وهذا أمر صريح بالتوكل عليه، والتفويض في كل الأمور إليه، فهل نمتثل...؟

لمَّا كانت الآيات التي قرأناها تتحدَّث عن «غزوة» هُزم فيها المسلمون عسكريًّا بسبب مخالفتهم لأوامر قيادتهم، وصيانة لهم من أن تحدث هذه الهزيمة العسكرية، ضعفاً ـ ولو بسيطاً ـ في نفوسهم.. !!

ذكَّرهم الله تعالىٰ بيوم من أيام النصر، تقوية لقلوبهم، وتسلية لنفوسهم، وشحذاً لعزائمهم.. حيث يقول سبحانه:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

أي: نصركم الله يوم غزوة بدر، وأنتم أقلية في العدد والعدة، وأعداؤكم كثرة في العدد والعدة، فاتقوا الله، واستقيموا على أمره وشرعه، وأخلصوا الود للمؤمنين، ولا تخشوا إلَّا الله تعالىٰ، لعلكم بذلك ـ وليس بغيره ـ تشكرون ربكم علىٰ إنعامه عليكم. واذكر كذلك يا محمد:

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

أي: تقول للمؤمنين تقوية لهم وربطاً علىٰ قلوبهم، وتثبيتًا لأقدامهم في ساحة المعركة ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ﴾ ويعينكم ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ من عنده سبحانه..؟

﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿بَلَىٰٓ﴾.. أي: يكفيكم ذلك.

لاحظوا أيها الأحباب رعاية الله للمؤمنين حيث أمدَّهم **أولًا** بألف من الملائكة، كما في سورة الأنفال، حيث قال جلّ شأنه:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

وهنا: صارت الملائكة ثلاثة آلاف، أمدهم سبحانه بها **ثانيًا**.

ثم.. أمدهم **ثالثًا** ﴿بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي: معلَّمين معروفين. علىٰ كل حال:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾

أي: ما جعل الله إنزال الملائكة وإعلامكم بإنزالهم إلَّا بشرىٰ لكم، وتطييباً لقلوبكم وتطمينًا لها، وإلَّا فإن النصر من عند الله لا من عند المقاتلين، ولا من عند الملائكة، وإن كان هذا وذلك من الأسباب.

يبيِّن ربنا ﷻ ـ بعد ذلك ـ بعض أسباب تشريع الجهاد، ولماذا كلف به عباده، ووعدهم عليه بالنصر..؟ حيث يقول جل شأنه:

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

أي: ليهلك طائفة من الذين كفروا، أو يهزمهم؛ فيرجعوا مكبوتين خائبين، لم ينالوا مبتغاهم في إيذاء المسلمين.

ثم يوضح المولىٰ: أن علينا الطاعة لأوامره؛ حيث إن له الحكم في الدنيا والآخرة.. حينما يقول ﷻ:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

أي: إن الأمر لله وحده.. إما أن يتوب علىٰ هؤلاء الكفار ويهديهم بعد الضلال، وإما أن يعذبهم إن أصروا علىٰ الكفر؛ حيث إنهم في هذه الحالة ظالمون يستحقون العذاب.

ثم يقدم ربنا تبارك وتعالىٰ ما هو، كالدليل علىٰ أن الأمر له وحده.. إذ يقول سبحانه:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

أي: الجميع ملك له، لا معقب لحكمه، إن غفر فبالفضل، وإن عذب فبالعدل، والله سبحانه غفور رحيم، سبقت رحمته غضبه.

وبعد أن حذر المولى عباده المؤمنين.. من أخطر قضيتين يمكن أن تتساهل فيهما.. **وهما**: طاعة أهل الكتاب، واتخاذ بطانة من غير المؤمنين.

بعد ذلك: ينهىٰ عباده المؤمنين عن أكل الربا. فيقول جلَّ شأنه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

وهذا نهي عن الربا؛ حيث إن من طبيعته مضاعفة الدَّين: أن يؤدي إلىٰ امتصاص دماء الناس، وأكل أموالهم بغير حق.

ثم أمر المولىٰ عباده بالتقوىٰ.. وذلك بترك الربا ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها، عند المخالفة لأوامره، وارتكاب نواهيه.

فقال عز من قائل:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾

يقول الإمام أبو حنيفة رحمه الله: هذه أخوف آية في القرآن؛ حيث توعَّد الله المؤمنين بالنار المعدَّة للكافرين، إن لم يتقوه في اجتناب محارمه.

اللهم.. نجِّنا من غضبك ومن عذابك يا رب العالمين.

ولكن من كرمه تعالىٰ أنه أطمع المؤمنين في نوال رحمته.. !! وذلك: بدعوته لهم.. أن يسلكوا طريق طاعته سبحانه، وطاعة رسوله ﷺ، إذ يقول جلَّ شأنه:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

أي: وأطيعوا الله فيما يأمركم به، وينهاكم عنه من أكل الربا وغيره. وأطيعوا الرسول كذلك؛ فإن طاعته من طاعة الله تعالىٰ.

ثم ندب ربنا ﷻ المؤمنين إلىٰ المبادرة إلىٰ فعل الخيرات، والمسارعة إلىٰ نوال القربات.. فقال سبحانه:

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

أي: وسارعوا أيها المؤمنون إلىٰ الأعمال الصالحة التي تؤدي بكم إلىٰ نوال مغفرة من ربكم لذنوبكم، وكذلك إلىٰ دخول جنة واسعة عرضها كعرض السماوات والأرض، أما طولها فلا يعلمه إلَّا الله سبحانه وتعالىٰ، أُعدت وزُينت للمتقين اللهَ تعالىٰ بعمل الطاعات، وترك المعاصي، كما أعدت النار للكافرين.

ثم وصف الله المتقين، أهل الجنة.. بقوله ﷻ:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

الصفة الأولىٰ: إنفاق الأموال والجهاد في طاعة الله.. في جميع الأحوال.

الصفة الثانية: كظم الغيظ وامتلاك أنفسهم عنده، وعدم التصرف عند الغضب بما يؤدي إليه، ولا يُعلمون أحدًا به، احتسابًا لله تعالىٰ.

الصفة الثالثة: العفو عن الناس، فلا يُؤاخذون أحدًا بذنب جناه عليهم، بل يعفون ويُسامحون.

الصفة الرابعة: الإحسان إلىٰ المسيء، وهي متاجرة مع الله تعالىٰ، حيث إنه يحب صاحب هذه الصفة، وكفى بذلك مكسبًا.

ثم ذكر المولىٰ **الصفة الخامسة** من صفات هؤلاء المتقين.. فقال ﷻ:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

نعم.. ذكر الله عند الذنب والخوف من عقابه بما يبعث علىٰ التوبة، والإقلاع عن المعصية، والندم علىٰ اقترافها.. هو الصفة الخامسة.

وسواء كان ذكر الله تعالىٰ باللسان والقلب، أو بالقلب فقط: فإن المهم منه.. ما يقود العبد إلىٰ طلب المغفرة من الله تعالىٰ، علىٰ ما صدر من ارتكاب فاحشة كبيرة، أو ظلم للنفس، بالوقوع في معصية دون ذلك.

المهم أن لا يكون هناك إصرار واستمرار علىٰ ارتكاب الفاحشة، أو الوقوع في المعصية، أو استهانة بعقابها، وأن يكون لديهم العلم بأنه لا يغفر الذنب إلَّا الله سبحانه وتعالىٰ، ومن هنا فتوبتهم إليه متجددة ودائمة، وعن قناعة بأنه الغفور الرحيم.

وإذا كانت هذه هي صفات المتقين.. فنحب أن نعرف سويًّا جزاءهم، يقول الله تعالىٰ:

﴿أُولَٰئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

هؤلاء الذين وُصفوا وتحققوا بهذه الصفات جزاؤهم عند ربهم:

أولًا: مغفرة لذنوبهم، وعفو كريم من الله تعالىٰ عنهم.

ثانيًا: جنات تجري من تحتها الأنهار، يدخلونها يقيمون فيها لا يخرجون منها، ولا يموتون أبدًا.

وتختم الآية بهذا الترغيب في عمل الطاعات، إذ يقول ربنا تبارك وتعالىٰ: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ بالطاعات.. هذا الأجر.

أي: هل هناك مَن يطلب في يوم الجزاء أفضل من هذا؟

فكونوا إذاً من المتقين الموصوفين بهذه الصفات الجميلة.

ولاحظوا أن الآيات الكريمة كانت تحدثنا عن غزوة أحد، وغزوة بدر.

ثم انعطف الحديث من باب التعليم لنا في ثنايا الحديث عن الجهاد، إلىٰ موضوعات أخرى ـ مثل النهي عن أكل الربا، والتخويف من النار، والترغيب في الجنة، والتحلي بصفات أهلها ـ ثم يعود الكلام إلى موضوع الجهاد مرة أخرى.. حيث يقول الله تعالىٰ:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

أي: مضت سنة الله في المخالفين لشرع الله، ودعوات أنبيائهم بالإهلاك، وسنن الله لا تتغير ولا تتبدل، فسيروا في الأرض، واعرفوا أحوال أممها، وانظروا كيف كان عاقبة المكذبين.

ولعل هذه المعرفة تفيدكم في طاعتكم لله تعالىٰ، وتعينكم علىٰ متابعة نبي الله محمد ﷺ، كما تفيدكم في عدم الحزن حينما يتغلب الكفار أحيانًا، وتعلو رايتهم، واعلموا أني أمهلهم لوقت إهلاكهم الذي سبق في علمي، ولا أهملهم بدون عقاب .

ثم يقول ربنا عز وجل:

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

هذا القرآن بيان وتوضيح بما يحتاجه الناس كلهم، لصلاح دينهم ودنياهم وآخرتهم، وهدي لمن اتبع ما فيه؛ حتى لا يقع في الضلال والغواية، وموعظة ـ في ذات الوقت ـ ينتفع بها المتقون منهم.

وبعد هذا البيان العام يقبل ربنا على أوليائه المتقين المجاهدين بالموعظة والدروس من خلال تجربة عملية.. هي ما جرى يوم أُحد، حيث يقول الله تعالىٰ لهم:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

أي: ولا تضعفوا عن الجهاد بسبب ما أصابكم أو يصيبكم، ولا تحزنوا علىٰ ما أصابكم في سبيل الله، واعلموا ـ جيّداً ـ أنكم أنتم الأعلون إن صح إيمانكم، وقويت عزيمتكم.

وهذه بشارة للمؤمنين: بالعلو، والغلبة والنصر في النهاية، كما تفيد الآية: أن صحة الإيمان وقوته تؤدي إلى: قوة القلب، والثقة بوعد الله، وقلة المبالاة بالأعداء وكثرتهم وعدتهم، ثم يقول الله لأوليائه:

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

أي: إن أصابكم أذى من عدوكم، فلا تهنوا ولا تحزنوا، بل تَجلَّدوا وتماسكوا.. فقد أصابهم كذلك ما أصابكم وتماسكوا وهم علىٰ الباطل، فأنتم أولىٰ بالتماسك وعدم التخاذل منهم؛ لأنكم علىٰ الحق.

ويذكر ربنا سبحانه سُنَّة من سننه، فيقول نحن نصرِّف ما في العالم من نِعَمٍ ونقم بين الناس، فنعطي لهؤلاء تارة، ونعطي لغيرهم تارة أخرى، وذلك لحكم وعلل كثيرة. قد تُعلم ويعرفها الناس، وقد لا يعرفها أحد..!!

ومن هذه الحكم في هذه المداولة أربع:

ثلاث منها حينما تكون الغلبة علىٰ المسلمين، وواحدة حينما تكون الغلبة للمسلمين.

وذلك ليتميز المؤمن المخلص من الذي يرتد عن دينه؛ بسبب المصاعب والمشقات من أجل نصرة هذا الدين، وكذلك ليكرم الله بعض المؤمنين بنوال الشهادة، حيث يُقتلون في سبيله.

ويلاحظ جيدًا بعد ذكر هاتين العلتين: إنه مَن ليس مجاهدًا أو علىٰ نية الجهاد، صادقًا مخلصًا لله في ذلك فهو ظالم لنفسه.. والله لا يحب الظالمين.

ويذكر ربنا ﷻ الحكمة الثالثة، والحكمة الرابعة في قوله تعالىٰ:

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾

أي: ليميز الله الذين آمنوا وأخلصوا لله، من غيرهم؛ إن كانت الغلبة لغير المسلمين.

وكذلك ليمحق الذين كفروا ويهلكهم، ويمحو آثارهم وأفكارهم؛ إن كانت الغلبة للمسلمين.

هذا ويصحح المولىٰ ﷻ مفهومًا مغلوطًا يقع فيه كثير من الناس، وهو أن دخول الجنة يكون بدون جهاد وصبر، حيث يقول الحق سبحانه:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

أي: هل ظننتم أن دخول الجنة يكون بلا جهاد للنفس والهوىٰ والشهوات والشياطين؛ امتلاكاً لأسباب القوة، و استعلاء علىٰ الوقوع في مستنقع الرذائل..؟

وكذلك بلا جهاد الأعداء نشرًا للدين، ودفاعًا عن أهله وصيانة لحرماته ومقدساته..؟

وظننتم كذلك أن دخول الجنة يكون بلا صبر علىٰ فعل الطاعات، وعن ارتكاب المعاصي، وعلىٰ التحمل عند الابتلاءات، وعلىٰ الثبات والقوة في ميادين الجهاد إن كنتم تظنون ذلك، فأنتم علىٰ خطأ كبير.

ثم وبَّخ الله الذين تمنوا الحرب في يوم أحد، وهو توبيخ لكل مَن كان مثلهم، حيث يقول المولىٰ عز وجل:

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

إذ قلتم ليت لنا يومًا كيوم بدر، لننال ما نال شهداؤه، فتمنيتم الحرب وتسببتم فيها وقد وقعت ثم خالفتم، ولم تلتزموا تعاليم قيادتكم فانهزمتم.

ولعله ـ كذلك ـ توبيخ علىٰ تمني الموت؛ حيث إن في تمنيه تمني غلبة الكافرين.

بل علىٰ المسلم أن يتمنى الشهادة لينال كرامتها، ولينتصر الإسلام والمسلمون.

وفي الصحيحين من حديث النبي ﷺ: **«لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافيه، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»**.

هذا.. ولمَّا انهزم مَن انهزم من المسلمين يوم أحد.. !! ولمَّا قال أحد المشركين وأشاع أن النبي ﷺ قد قتل.. !! ولمَّا بدأ الضعف يدب في نفوس بعض المسلمين؛ بسبب ذلك..!! أعطىٰ الله المسلمين درساً يفيدهم ومَن بعدهم، إلىٰ يوم الدين، حيث قال ﷻ:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

أي: محمد ﷺ رسول كالرسل، وقد مضت الرسل، وماتوا من قبله، وسيمضي هو كما مضوا، ويموت كما ماتوا من قبله.

وكما أن أتباع الرسل السابقين عليهم السلام ظلوا متمسِّكين بدينهم بعد وفاة رسلهم، فعليكم أن تتمسكوا بدينه وتنشروا تعاليمه، وتجاهدوا من أجله بعد وفاته، ولا ينبغي أن يكون منكم ترك لذلك، أو ضعف عنه.

ثم قال تعالىٰ مستنكراً علىٰ مَن ضعف منهم: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ تركتم هذا الدين..!!؟

علىٰ كل حال: مَن يرتد عن هذا الدين بسبب موت النبي أو بسبب معاداة دينه ومحاربة تعاليمه أو إنكار صلاحيتها.. فلن يضر إلَّا نفسه.

أما مَن ثبت علىٰ كل حال، وقام بطاعة الله، وقاتل عن دينه، واتبع رسوله حياً وميتاً فهو من الشاكرين لنعمة الإسلام، وسيجزيهم الله خير الجزاء.

وبعد هذا يشجِّع الله الجبناء، ويبث فيهم الثقة، ويرغبهم في الجهاد، إذ يقول الله ﷻ:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

نعم فإن الإقدام أو الإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه؛ حيث إنه لكل أجل كتاب..؟ فلم انهزمتم..؟ والهزيمة لا تدفع الموت، والثبات لايقطع الحياة..؟

علىٰ كل حال: مَن كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قدَّره الله له، ولم يكن له في الآخرة نصيب، ومَن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها، مع ما قسم له في الدنيا.

وسنعطي الشاكرين من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة، بحسب شكرهم لنا، وعملهم لمرضاتنا.

وبعد ذلك يقول ربنا تبارك وتعالىٰ، مسلياً للمسلمين عمَّا وقع في نفوسهم يوم أحد. وهو ـ في ذات الوقت ـ تعليم لهم إلىٰ يوم القيامة. حيث قال جل وعلا:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

أي: وكم من نبي قاتل معه من أصحابه ربانيون، عالمون، عاملون، أتقياء فصبروا، وما فروا عندما قتل نبيهم، وما ضعفوا عن القتال في سبيل الله، وما استكانوا وسكتوا عن الجهاد.

والله يحب الصابرين علىٰ الإسلام، المتمسكين به المجاهدين أعداءه، من أجل نشره، وإعلاء مبادئه.

وبعد أن بيَّن الله تعالىٰ محاسن أهل الإيمان الفعلية، يبيِّن محاسنهم القولية، حيث يقول الله عز وجل:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

أي: لم يكن لهم من قول، ولا علىٰ ألسنتهم من كلام في كل حال ـ وبالأخص عند الشدائد، ولقاء العدو ـ إلَّا هذا الدعاء.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ مقدمين طلب المغفرة علىٰ ما هو الأهم بالنسبة لحالهم؛ لتكون الإجابة أقرب إليهم، لمَا في ذلك من الخضوع لله، والركون لجنابه سبحانه.

إذ قالوا بعد ذلك داعين: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولذلك: استحقوا ما ذكره الله تعالىٰ في قوله:

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

أي: جمع الله لهم خيري الدنيا والآخرة، ففي الدنيا النصر، وفي الآخرة المغفرة والجنة. وهو جزاء حسن.. يناسب المحسنين، الذين يحبهم الله تعالىٰ.

وبعد هذا البيان الإلٰهي لحال الربانيين، وجزاءهم عند ربهم، يزجر الله المؤمنين ويبعدهم وينفرهم عن متابعة الكفار، وطاعتهم. حيث يقول جل جلاله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

وذلك لأن طاعتهم تورث الهلاك في الدنيا والآخرة، حيث إنهم ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ عن دينكم ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

ولهذا.. يأمر ربنا تبارك وتعالىٰ أهل دينه، وأتباع نبيه عليه الصلاة والسلام بطاعته، وموالاته، والاستعانة به، والتوكل عليه، حيث يقول عز وجل:

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

يعني: ليس هؤلاء الكفار أنصاركم، حتىٰ تطيعونهم، بل الله ناصركم فأطيعوه، كما أنه خير الناصرين المستحقين للطاعة، الجديرين بالاستعانة به دون غيره.

ثم بشَّر الله المسلمين بأنه سيلقي الرعب في قلوب أعدائهم. حيث قال جل شأنه:

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

يعني: سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب منكم، والخوف من مواجهتكم.

وهذا.. من أعظم مظاهر النصرة من الله؛ حيث إنه من المعلوم أن الجيوش التي تفقد معنوياتها لا تستطيع القتال، بل لا تستطيع أن تستعمل سلاحها.

وقد أعطىٰ الله المسلمين ذلك، ففي الحديث الشريف: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**» وذلك الرعب للكافرين من المسلمين، بسبب شركهم بالله تعالىٰ، وكفرهم بآياته ورسله، من دون حجة لهم.

كما أننا نجعل ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ سكنًا ومثوى لهم ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين.

لمَّا عاد المسلمون إلىٰ المدينة بعد غزوة أحد، وجلسوا يتدارسون ما حدث، وأدلىٰ كل منهم بدلوه، أنزل الله تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

أي: صدقكم الله وعده بالنصر، وحقَّقه لكم أول النهار؛ إذ تقتلونهم وتغلبونهم بإذنه حتىٰ فشلتم في الثبات، وتنازعتم في الأمر، وعصيتم قادتكم من بعد أن رأيتم ما تحبون، وهو النصر، إذ كان منكم مَن يريد الدنيا ومتاعها، كما كان منكم مَن يريد الآخرة ونعيمها،

ثم صرفكم بهذا الخلاف عن متابعة عدوكم ومراقبته ومقاتلته إلىٰ الهزيمة ليمتحنكم، فيظهر المخلص الثابت من غيره، ولقد عفا عنكم بفضله.. لمَّا علم ندمكم علىٰ هذه من المخالفة، والله سبحانه صاحب الفضل علىٰ المؤمنين.. في كل شيء.

ومن ذلك الفضل عدم تسليطه الكافرين عليهم ـ في هذه الحال ـ ليستأصلهم، ومنع الكافرين من متابعة القتال حتىٰ لا ينهوا أمر المسلمين، ومن ذلك الفضل أيضًا العفو عنهم، وقبول التوبة منهم.

ثم يبيِّن الله تعالىٰ كيف تم هذا الصرف الذي ذكره في قوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ فقال جل جلاله:

﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَابَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

ومعنىٰ الآية: ولقد صرفكم الله عنهم، بسبب مخالفة رسول الله ﷺ، فأصبحتم بعد النصر عليهم تصعدون في الهروب وتستمرون فيه، بعضكم دخل المدينة، وبعضكم انطلق إلىٰ الجبل، لا يلتفت الواحد منكم إلىٰ أحد، وخَلفتم رسول الله ﷺ، إلَّا مَن ثبت معه منكم، وهم قليل، وهو يدعو الفارين منكم قائلاً: **«إليّ عباد الله، إليّ عباد الله»**.

وكان الجزاء علىٰ هذا الفعل منكم عَمَّا أصبتم به، وأذاقكم الله إياه بعد غم من الجراح، والقتل، وفوت الغنيمة، وضياع النصر. وكل ذلك الغم والهزيمة، بسبب عدم خلوص النية من البعض فيكم، ثم بيَّن رب العزة.. الحكمة فيما حدث.

وهي: تدريب المسلمين علىٰ تحمل المصائب وعدم الجزع لها، لكي لا تحزنوا فيما بعد علىٰ ما يفوت من المنافع، ولا علىٰ ما يقع لكم من المصائب والابتلاءات.

ثم رهَّبهم سبحانه من الوقوع في المعصية بعد ذلك، ورغَّبهم في طاعته.. بهذا الختام الرائع للآية الكريمة، حيث قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

هذا، ولكن رحمة الله بعباده المؤمنين الصادقين لم تتخل عنهم، في هذا الوقت العصيب، حيث يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ

﴿ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

أي: أنزل الله علىٰ طائفة منكم الأمن، والسكينة، والثبات؛ حتىٰ أخذكم النعاس، الذي يمسح عن نفوسكم الهم والغم الذي أصابها، بسبب هذه الهزيمة.

وهناك طائفة منافقة لا يهمهم إلَّا أنفسهم، ونجاتها، فلا يهتمون بالدين، ولا برسول الله ﷺ، و لا بالجماعة المسلمة.

هؤلاء: لا يغشاهم النعاس.. من القلق، والخوف، والفزع .

هؤلاء: يظنون بالله غير الحق، حيث يشكُّون في نصر الله لرسوله، ولجنده، ولدينه.

وهذا هو ظن الجاهلية، الذي لا يظنه إلَّا أهل الشرك، الكارهون للإسلام ولرسول الله ﷺ.

بل أكثر من ذلك...!! فهم ﴿يَقُولُونَ﴾ بسبب ضعف عزيمتهم، وقلة يقينهم: هل لنا في النصر الذي وعدنا به حظ ونصيب، بعد هذه الهزيمة، إنها النهاية لهذه الدعوة، وفاتهم الإيمان، بأن كل شيء بيده سبحانه من نصر، أو هزيمة.

وعلى هذا يجب التسليم لأمره، والرضا بقضائه، والمسارعة في مرضاته سبحانه.

ثم يكشف ربنا للحبيب ﷺ ما يدور بينهم. ويبيِّن: أنهم يقولون فيما بينهم وبين أنفسهم خوفاً ورهبة: لو كان الأمر كما قال محمد.. لمَا غُلبنا قط، وما قُتل منَّا مَن قُتل في هذه المعركة، ولو كان الأمر بأيدينا، والاختيار لنا في الاشتراك بهذه المعركة، ما كنا خرجنا وما قُتل منَّا مَن قُتل، ولكنا أُخرجنا كرهاً، وهذا..من شك المنافقين في صدق هذه الدعوة وصاحبها عليه الصلاة والسلام.

قل لهم يا محمد: قدر الله ينفذ لا محالة.. ولو قعدتم في بيوتكم، لبرز وخرج من هذه البيوت، مَن كُتب عليه القتل إلىٰ مصارعهم وأماكن موتهم، لا يمنعهم من قدر الله مانع.

هذا.. وقد حدث في أُحد ما حدث، وفعل الله ما فعل؛ لفوائد كثيرة للمسلمين. وذلك ليختبر الله ما في صدوركم من الإخلاص والنفاق، وليميز ما في قلوبكم من وساوس الشيطان.

وهذا ـ كما يلاحظ ـ من التربية للمسلمين بالشدائد.

وهو سبحانه عليم بما في القلوب، لا يخفى عليه شيء مما فيها.. وإنما يبتلي بالشدائد والمحن؛ ليظهر للناس المؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب.

ثم يبيِّن ربنا ﷻ السبب في هزيمة مَن هُزم يوم أُحد ـ تعليماً لنا ودعوة إلى طاعته ـ بقوله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

يعني: أن الذين خالفوا أمر النبي ﷺ، وتركوا مواقعهم كان ذلك منهم: بسبب إغواء الشيطان لهم، ولم يكن عناداً منهم، ولا فراراً من الزحف رغبة في الدنيا، إنما هو الضعف البشري، وإغواء الشيطان. ولذلك يبشرهم الله بعفوه عنهم..

حيث غفر الله لهم، وتجاوز عما كان منهم، فهو سبحانه يغفر الذنوب، حليم لا يُعاجل بالعقوبة.

ثم ينهىٰ الله عباده المؤمنين عن التشبه بالمنافقين في أقوالهم وأفعالهم واعتقاداتهم، فيقول جل شأنه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾

أي: لا تكونوا أيها المؤمنون كهؤلاء الكفار في اعتقادهم الفاسد، الذين يقولون عن إخوانهم في النسب أو في السلوك أو في الاعتقاد، حينما يسافرون للتجارة أو للغزو والحروب ثم يموتون خلال ذلك، يقولون عنهم: لو كانوا عندنا ما ماتوا في السفر، ولا قتلوا في الغزو. سبحان الله.. !!

لقد خُلق هذا الاعتقاد الفاسد في نفوسهم: ليزدادوا حسرة علىٰ موتاهم وقتلاهم.

ولذلك صونوا من هذا الفهم الفاسد قلوبكم ـ أيها المؤمنون ـ وتحلوا دائماً بالإيمان بقضاء الله وقدره، وأنه لكل أجل كتاب، ثم رد الله قولهم الباطل واعتقادهم الفاسد. وبيَّن أن الأمر بيد الله، ولا يحيا أحد ولا يموت في موعده المقدر إلا بمشيئته سبحانه، ولا يُزاد في عمر أحد ولا ينقص، إلَّا بقضائه وقدره.

وهذا رد علىٰ اعتقادهم الفاسد من جهة، وتعليم للمسلمين صحيح العقيدة من جهة

أخرى. وبعد توضيح هذا الاعتقاد الفاسد في الموت في سبيل الله والتصحيح له، يبيِّن رب العزة: فضله، والجزاء العظيم عليه، حينما يقول عز وجل:

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

أي: أن الموت في سبيل الله وسيلة وطريق إلىٰ نوال رحمة الله وعفوه ورضوانه، وذلك الجزاء خير من البقاء في الدنيا، وجمع حطامها الفاني.

ويخبر ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ تهيئة لهذا الفهم، ومساعدة علىٰ قبوله، والعمل من أجله أن مَن مات أو قتل، فمصيره ومرجعه إلىٰ الله ﷻ. حيث يقول المولىٰ ﷻ:

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

أي: ترجعون إليه، وتحشرون عنده؛ فيجازيكم بأعمالكم: إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. وبعد ذلك التصويب والتعليم يقبل مولانا علىٰ الحبيب ﷺ بشرف الخطاب له.

قائلاً جل جلاله:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

أي: بسبب رحمة الله لك ولأمتك، لَانَ جانبك لهم، وحَسُنَ خلقك معهم يوم أُحد، ولم تعنفهم أو توبخهم، علىٰ ما كان من مخالفتهم لك، وما ترتب عليها.

إذ لو كنت سيء الكلام، قاسي القلب عليهم؛ لانفضوا عنك وتركوك وتفرقوا من حولك، ولكن الله بنعمته ورحمته جمعهم عليك، وألان قلبك لهم، تألّفاً لقلوبهم.

يقول عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: رأيت صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة: «أنه ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح» صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله.

ولاحظوا حسن التنسيق، والترتيب البديع في هذه الأوامر، ذلك أن الله تعالىٰ:

أمر أولاً: بالعفو عنهم، فيما يتعلق بحقوقه ﷺ عليهم، كما عفا الله عنهم، فإذا انتهوا إلىٰ هذا المقام.. !!

أمر ثانيًا: أن يستغفر لهم ما بينهم وبين الله تعالىٰ، لتنزاح عنهم التبعات وأثقال الذنوب، فلما صاروا إلىٰ هذا الحال.. !!

أمر ثالثًا: أن يشاورهم في الأمر، بعد أن صاروا أهلاً للمشورة.

أي: شاورهم في كل أمورهم من حرب أو سلم أو غير ذلك، مما لم ينزل عليك فيه وحي.

وذلك: تطييباً لنفوسهم، ورفعاً لقدرهم، وتوعية لهم في أمورهم، واستخراجاً لطاقات عقولهم، فإذا شاورت ووصلت إلىٰ قرار، وقطعت الرأي علىٰ الأخذ به فتوكل علىٰ الله في تنفيذه.

إن الله سبحانه وتعالىٰ، يحب المتوكلين عليه، المفوضين أمورهم إليه حينما يأخذون في الأسباب، ويبذلون الطاقة، ويستنفدون ما في وسعهم، ثم يعتمدون علىٰ الله، وينفذون ما اجتهدوا فيه، وشاور من أجله.

وبعد الأمر بالشورى وبيان أهميتها، وبعد الأمر بالاستعانة بالله والتوكل عليه، يوضح الله سنَّة من سُننه، وقاعدة من قواعد قدرته وحكمته، يثبت بها المؤمنين، ويزيدهم بموجبها إيماناً علىٰ إيمانهم، حيث يقول سبحانه:

﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

أي: أن الأمر كله لله ومن الله، في حال النصر وفي حال الهزيمة؛ فلا يهزمكم أَحد إن أراد الله نصركم، ولا ينصركم أَحد إن أراد الله هزيمتكم وخذلانكم.

ومادام الأمر كذلك..!! فعلىٰ المؤمن أن يتَّصف بالتوكل علىٰ الله تعالىٰ في كل حال.

هذا ويعود السياق في الآيات الكريمة إلىٰ رسول الله ﷺ، إذ بعد أن وصفه رب العزة سبحانه في الآيات السابقة بلين الجانب، وحسن الخلق، وعدم الفظاظة ينزِّهه ﷻ هنا عن الخيانة، فيقول جل شأنه:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

أي: وما يمكن ولا يصح لنبي أن يغل، أي: يأخذ شيئا خفية. وكذلك لا يمكن ولا ينبغي أن ينسب ذلك لنبي.

وهذا تنزيه للنبي ﷺ من جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وتقسيم الغنائم، وغير ذلك؛ حيث أنه معصوم من ذلك كله. وعلىٰ كلٍّ، فمن يخن ويغل ويأخذ شيئاً من الغنيمة

بعد المعركة أو خلالها يأت بنفس ما أخذه يوم القيامة، حاملًا له فوق كتفه، علىٰ رؤوس الأشهاد، أو يأت حاملًا إثم ما أخذ وأخفىٰ، وبئس ما حمل..!!

وبعد أن يأتي به. وهيهات..!! يأخذ جزاء ما أخفاه وأخذه، دون ظلم لها بزيادة في العقاب أو نقصان. وهذا: تهديد مخيف، يردع من الإثم السيء.

وبعد هذا التخويف يرفع الله همم أهل الإيمان إلىٰ التحلِّي بالمحامد الموصلة إلى مرضاته تعالىٰ، إذ يقول ﷻ:

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾

قطعًا.. لا يستوون، بل.. لا بد أنهم يتفاوتون، كما يقول المولىٰ سبحانه وتعالىٰ:

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

أهل الخير.. درجاتهم في الجنة، وأهل الشر.. دركاتهم في النار.

وبعد أن امتنَّ الله علىٰ النبي ﷺ وعلىٰ المؤمنين بلين جانبه عليه الصلاة والسلام في الشدائد، وحسن خلقه، يمتن مرة ثانية علىٰ المؤمنين بالنعمة الكبرىٰ، والمنة العظمى علىٰ الدنيا كلها.. وهي بعثة محمد ﷺ. فيقول جل جلاله:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

وهذه النعمة ليست إلَّا من الله، وبها شَرُفَ العرب، وبها تحددت هويتهم، وعرفت ملامحهم، وصار الاسلام بسببها هو: «بطاقة الشخصية» ـ كما يقول صاحب الظلال ـ التي تقدم بها العرب للعالم، فعرفهم واحترمهم وسلمهم القيادة.

وهم اليوم وغدًا لا يحملون إلَّا هذه البطاقة، ليست لهم رسالة غيرها يتعرفون بها إلىٰ العالم، وهم إما أن يحملوها فتعرفهم البشرية وتكرمهم، وإما أن ينبذوها فيعودوا هملاً كما كانوا، لا يعرفهم أحد ولا يعترف بهم أحد، وما الذي يقدمونه للبشرية حين لا يتقدمون إليها بهذه الرسالة..؟

يقدمون لها عبقريات في الإنتاج الصناعي المتفوق، تنحني له الجباه، ويغرقون به الأسواق، ويغطُّون به ما عند غيرهم من إنتاج..؟ لا.. لا..!!

لقد سبقتهم شعوب كثيرة، في هذا المضمار..؟ يقدمون لها..؟ أو يقدمون لها..؟ أو.. أو.. ألخ. إنها وحدها ـ أيها السادة ـ بطاقة الشخصية، التي تقدموا بها قديماً للبشرية، فأحنت لهم هامتها، وهي التي يمكن أن يقدموها لها اليوم.. فيكون فيها الخلاص والإنقاذ من الضلال المبين، والهلاك المقيم.

بعد هذه الدروس الإيمانية التربوية، التي تخلَّلت الكلام عن غزوة أحد، يعود السياق لدروس الغزوة المباشرة، فيقول رب العزة:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾

أي: ما كان ينبغي لكم أيها المؤمنون أن تقولوا حين أصابتكم مصيبة قتل السبعين منكم يوم أحد: كيف حدث هذا..؟ خاصة وأنتم السبب فيما حدث، إضافة إلىٰ أنكم يوم بدر.. قد أصبتم المشركين مثليها، حين قتلتم سبعين وأسرتم سبعين منهم.

الأوْلىٰ أن تعترفوا أنكم السبب بمخالفة أوامر قيادتكم، والأولىٰ كذلك أن تعلموا أن الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا راد لمشيئته، ولا مانع لحكمه، سبحانه وتعالىٰ.

ثم يريح ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ نفوس المؤمنين، ويرشدهم إلىٰ الحق والصواب، في علة ما حدث من هزيمة عسكرية، حيث يقول ﷻ:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾

أي: كل شيء بقضاء الله وقدره وإذنه، وليميز الله المؤمنين من غيرهم، ويظهرهم للناس تكرمة لهم،وإنعاماً عليهم. كذلك..

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾

أي: وليميز الله المنافقين من غيرهم، ويظهرهم للناس؛ إهانة لهم، وكشفاً لأمرهم.

هؤلاء المنافقون.. دعوا للاشتراك في المعركة وقيل لهم: قاتلوا في سبيل الله؛ رجاء الفوز في الآخرة، كما يقاتل المؤمنون، أو تعالوا ادفعوا العدو، وأخيفوه فقط بتكثيركم سواد المجاهدين المؤمنين، إن لم تقاتلوا. فماذا قالوا..؟

قالوا: ليس هذا هو القتال، ولكنه إلقاء بالنفس إلىٰ التهلكة. وهنا.. كذَّبهم الله تعالىٰ وبيَّن أنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان قبل ذلك، فلما حدث ما حدث، ظهر كفرهم، وبعدهم عن الإيمان. حيث إنهم يظهرون خلاف ما يضمرون، والله يعلم إسرارهم وسيجازيهم علىٰ سوء نيتهم، وفساد طويَّتهم. ثم وصفهم المولى بأنهم هم:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

يعني: الذين قالوا عن إخوانهم في الصورة ـ ممن قتل يوم أحد ـ حينما قعدوا هم عن القتال، لو أطاعونا وانصرفوا عن رسول الله، وما قاتلوا، لما قتلوا، كما لم نقتل نحن. وهنا.. رد الله عليهم. أي: إن كنتم صادقين في أن الحذر يمنع القدر، ويدفع الموت، فادفعوه عن أنفسكم، في ميدان القتال أو في غيره.

وبعد هذه الجولة في الرد علىٰ المنافقين ومفاهيمهم المغلوطة..!! يبيّن الله ﷻ الصواب في أمر القتل والموت في سبيل الله، حيث يقول عز من قائل:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

وسبب نزول هذه الآية: أن الشهداء، لما وجدوا طيب ما أعد الله لهم في الجنة، قالوا: مَن يُبلغ عنا إخواننا أننا أحياء في الجنة؟ فقال الله تعالىٰ: أنا أبلغهم عنكم، وأنزل هذه الآية.

ومعناها: أن القتل الذي يحذره المنافقون، ويحذِّرون الناس منه ليس مما ينبغي الحذر منه، بل إنه مما ينبغي السعي إليه. حيث إن الشهداء.. وإن قتلوا في هذه الدار، فإن أرواحهم حية عند ربهم، مرزوقة في دار القرار.

ثم وصف الله حالهم في حياتهم هذه، ورزقهم ذاك بقوله سبحانه:

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

أي: فرحين بفضل الله عليهم، استبشروا لإخوانهم الذين لم يستشهدوا بعد ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما هو آت ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ شيء فات.

وهذه بشارات أخرىٰ لهؤلاء الشهداء، الذين استبشروا أولًا لإخوانهم.

حيث يقول عز من قائل:

﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

أي: يستبشر هؤلاء الشهداء بثلاثة أمور:

الأول: يستبشرون ويُسرون بما أنعم الله عليهم به.

الثاني: يستبشرون ويُسرون بما تفضل الله عليهم به من زيادة الكرامة.

الثالث: يستبشرون ويُسرون بإعطاء الله المؤمنين أجورهم كاملة موفرة.

وفي هذا من الحث علىٰ الجهاد، والترغيب في الشهادة، والبعث على ازدياد الطاعة، وبشرى المؤمنين بالفلاح.. ما لا يخفىٰ.

وبعد أن بيَّن الله فضل الشهداء يكون الحديث في وصف مَن بقي حياً من المؤمنين بعد المعركة، وبيان فضلهم وشجاعتهم، وقوة إيمانهم. حيث يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾

هذه صفة أولى من صفات أهل الإيمان وهي: الاستجابة لداعي الجهاد في سبيل الله، في كل الظروف والأحوال، بصفة عامة.

وكانت هذه الاستجابة ممن بقي حيًّا من المؤمنين في غزوة أُحد، لمَّا بلغ النبي عليه الصلاة والسلام أن المشركين قالوا بعد أن رجعوا عن أُحد: لا محمد قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، بئسما صنعتم، ارجعوا.. فرجعوا لقتال المسلمين مرة أخرى.

وهنا دعا النبي عليه الصلاة والسلام ـ فقط ـ مَن اشترك في المعركة للقاء العدو، فكان السمع والطاعة، والاستجابة الفورية، وهم مثقلون بالجراح، فأنزل الله هذه الآية.

وبيّن تعالىٰ فيها أن كل مَن استجاب لله وللرسول فهو محسن، متق لله، له أجر عظيم.

ثم يذكر الله تعالىٰ صفة ثانية من صفات أهل الإيمان، وهي: الثبات في وجه التهديد، والشائعات، والحرب النفسية من الأعداء. إذ يقول ﷻ:

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾

نعم، إن مَن يستقرئ التاريخ لا يجد لدى أعداء الإسلام وأهله سوىٰ المحاولات الدؤوبة لبث الرعب في نفوس المسلمين، وإضعاف ثقتهم في دينهم، وصرفهم عن التمسك بمبادئهم.

ولذلك: كان من صفات المؤمنين المحسنين المتقين: أنهم في مواجهة هذه المحاولات يزدادون إيماناً وثقة بما هم عليه من حق، كما أنهم يتوكلون علىٰ ربهم، ويعتمدون عليه، ويلتزمون بشرعه في كل حال. وكان هذا موقف مَن بقي حياً بعد غزوة أُحد. استجابوا لله والرسول ـ علىٰ ما بهم من أوجاع ـ في تعقب أهل الكفر.

وأيضًا لم يخافوا التهديد، ولم يتأثَّروا بالحرب النفسية.. وازدادوا يقينًا بما هم عليه من حق وصواب وإيمان. وتوكلوا علىٰ الله، وفوضوا أمرهم إليه، وقالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

ولذلك.. كانت النتيجة كما يبيِّنها المولىٰ في قوله:

﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾

أي: عادوا سالمين، وهذه نعمة من الله، وقد فَرَّ منهم أعداؤهم، وعادت هيبتهم.

وهذا فضل من الله، لم يمسسهم سوء؛ لعدم التلاقي مع الأعداء.

كل ذلك: بسبب استجابتهم لله والرسول، وسعيهم لنوال رضوان الله، صاحب الفضل العظيم علىٰ أهل طاعته.

وبعد هذه المواقف الإيمانية الرائعة منهم، يكشف الله سبحانه لهم من الأسرار ما يزيدهم الله بمعرفتهم لها ثباتًا علىٰ ثبات، ويقينًا علىٰ يقين. حيث يقول لهم ﷻ:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

أي: يا أيها المؤمنون.. انتبهوا جيدًّا.. فكل الذي يحدث ضدكم من حروب وتهديد وحرب نفسية.. وراءه عدوكم الأول، القديم، الحديث، الشيطان، الذي يخوفكم بأوليائه وأعوانه، ويوهمكم أنهم أصحاب قوة عليكم، وتفوق عنكم، وهم.. ليسوا ـ في الحقيقة ـ كذلك بل هم ضعف.. وأنتم بإيمانكم أقوى منهم. ولذا فلا تخافوهم خوفًا يقعدكم عن الالتزام بدينكم، والتَّقَوِّي عليهم، والتفوق عنهم.

نعم، لا تخافوهم بأي شكل من الأشكال، ولا في أي حال من الأحوال، ولا في أي عصر من العصور، بل خافوا الله وأطيعوه وحده إن كنتم مؤمنين حقًّا..!!

هذا ولأن الرسول ﷺ كان في أشد حالات الحرص علىٰ إيمان الناس كلهم..!! فكان يحزن لكفرهم، واستمرارهم عليه، وحربهم لله ورسوله دفاعاً عن هذا الكفر..!!

ولذلك يقول له رب العزة سبحانه تعبيراً له علىٰ تعنتهم معه في كفرهم وتعرضهم الدائم له بالأذى ﷺ.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

والآية كما تلاحظون ـ أيها الأحبة في الله ـ فيها بشارة عظيمة للمؤمنين، إذا صبروا، واتقوا. **وهي**: أن الكافر.. لن يضر إلَّا نفسه، وأن وبال الكفر علىٰ أصحابه فقط.

ثم يقرر الله تعالىٰ هذا المعنى ويوضحه، ويؤكده، مرة أخرى؛ للتحذير منه، والإبعاد عنه. في قوله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

أي: الذين اشتروا الكفر ورضوا به، وباعوا الإيمان وحرموا منه.. صفقتهم خاسرة.

ونتيجتها عذاب أليم.

ثم يصحح الله مفهوماً خاطئاً وتصوراً باطلاً لدى الكافرين، حيث يقول عز شأنه:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

أي: لا يظن أولئك الكافرون الظالمون لأنفسهم، أن إملاءنا لهم بطول العمر، والتوسعة في الرزق، وإمهالنا إياهم بعدم التضييق عليهم، وقلة الابتلاءات لهم، لا ينبغي أن يظنوا أن ذلك خير لهم، بل نحن نملي لهم ونمدهم بالنعم، ونمهلهم بعدم المسارعة في العقوبة؛ ليزدادوا إثماً؛ فيزدادوا عذابًا أليمًا فيه المهانة، بعد أن كانوا يظنون أن في المعصية والكفر الكرامة.

ومع هذا الإملاء والاستدراج للكافرين..!! فإن هناك الامتحان والابتلاء للمؤمنين.

نعم.. في قوله تعالىٰ:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

أي: لا بد أن يوقع الله أمرًا من المحنة؛ يُظهر فيه وليه، ويفتضح فيه عدوه، ويُعرف به المؤمن الصابر من المنافق الفاجر.

وذلك وعد للمؤمنين بالخير، ووعيد للمنافقين والكافرين بالشر في الدنيا، بعد بيان عقوبة الكافرين في الآخرة.

ثم يشرِّف ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ المؤمنين بالخطاب، المطمئن لصدق وعده، ووعيده هذا، حينما يبين لهم سنة من سنن الله: وهي التمييز بين المؤمن والمنافق بالمحن والابتلاءات، وإن معرفة المؤمن من المنافق بدون ابتلاءات، أو قبل وقوع الابتلاءات والمحن، غيب لا يعلمه إلَّا الله، ولا يطلع عليه أحدًا من خلقه إلَّا مَن يختار لذلك من رسله عليهم السلام، كما في قوله تعالىٰ:

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

ولذلك آمنوا بالله ورسله حق الإيمان، واطمئنوا عند الابتلاءات واثبتوا، وإن تؤمنوا بالله ورسله، وتتقوا ما يؤدي إلىٰ غضب الله وعقوبته، فلكم أجر عظيم من الله تعالىٰ في الآخرة.

بعد أن صحَّح الله ـ في الآيات السابقة ـ مفهوماً خاطئاً لدى الكافرين في إمهال الله لهم، وعدم معالجتهم بالعقوبة.. !! يصحح ربنا ـ كذلك ـ في الآيات التالية ـ مفهومًا خاطئًا لدىٰ البخلاء، وهو في هذا التصحيح وذلك يُعلِّم المؤمنين الصواب ويربيهم عليه؛ ليؤسِّس مجتمعهم علىٰ المنهج الأمثل.

فلنتعرض إلىٰ الحث علىٰ الإنفاق من خلال تصويب مفاهيم البخلاء عن المال.. يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

أي: لا يظن البخيل أن جمع المال، وعدم إنفاقه في وجوه الحلال والخير ينفعه، وأن ذلك خير له. لا.. وألف لا..!! بل هو شر له في دينه، وربما في دنياه، وشر له في آخرته كذلك، حيث إن البخلاء ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أي: سيكون مالهم الذي جمعوه، ومنعوه عن الحق، طوقاً من نار في أعناقهم يوم القيامة. ولمَ لا يكون ذلك..!!

خاصة أنه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: ولله سبحانه وتعالىٰ ما فيهما مما يتوارثه أهلها، من مال وغيره.

وإذا كان الحال كذلك، وهو كذلك..!! فما لهم يبخلون عليه بملكه؟ ولا ينفقون منه في سبيله..؟ والله ﷻ بما تعملون خبير..!! لا يغيب عنه شيء.

فاعملوا خيرًا وأخلصوا نياتكم، وضمائركم لله فيه؛ لتنقذوا أنفسكم من عذابه، وتنالوا رضوانه.

وبمناسبة البخل والبخلاء، واستمراراً في الحديث عنهم وبيان مساوئهم، يهدد الله تعالىٰ صنفًا منهم، أشد بخلاً، وأقبح قولًا، وأكثر عنادًا.

وهو الذي قال أهله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

فلنقرأ هذا التهديد الإلٰهي لهم:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾

يعني: لم يخف علىٰ الله تعالىٰ قولهم الآثم.

هذا وقد أعدَّ لهم ـ عليهم اللعنة ـ العقاب المناسب الذي بيَّنه في قوله تعالىٰ: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

أي: سنأمر الحفظة بتسجيل قولهم السيء هذا، ونحاسبهم عليه.

ونكتب معه كذلك فعلهم السيء أيضًا، وهو قتلهم الأنبياء بغير حق.

ونقول لهم يوم القيامة ذوقوا عذاب الحريق، جزاء علىٰ ما كنتم تقولونه، وما كنتم تفعلونه. ونقول لهم ـ كذلك ـ توبيخًا وتحقيرًا وتصغيرًا لشأنهم:

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

أي ذلك العذاب، بسبب ما قدمتموه من: الكفر، والمعاصي، والجرأة علىٰ الله ورسله.

وعلىٰ كل فالله ﷻ لا يظلم عباده، ولا يعاقبهم بغير جرم ارتكبوه.

أتريدون معرفة الذين قالوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] لتلعنوهم..!! إنهم هم:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾

وهؤلاء هم: اليهود، ادَّعوا أن الله أمرهم في التوراة أن لا يؤمنوا لرسول، فيصدقوه ويتابعوه؛ إلَّا إذا قرَّب إلىٰ الله قرباناً يتقرب به إليه من صدقة أو ذبح.. إلخ، ولا بد أن تنزل من السماء نار تأكل هذا القربان، وفي هذه الحال ـ فقط ـ نؤمن به.

ولكن الله ﷻ أمر رسوله ﷺ أن يرد عليهم كذبهم هذا، وتحريفهم للتوراة بقوله عليه الصلاة والسلام: يعني قل لهم؛ تكذيباً لقولهم:

قد جاءكم يا يهود رسل من قبلي بالحجج والبراهين والمعجزات الدالة علىٰ صدقهم، كما جاؤوكم بالذي قلتم من القربان أيضًا.. فلمَ كذبتموهم..؟ ولمَ قتلتموهم إن كنتم صادقين في كلامكم، ورغبتكم في الإيمان..!! وإذا كان هذا فعلكم بالأنبياء، الذين هم منكم..!! فكيف يكون فعلكم بمن ليس منكم إن قدرتم عليه..؟

لا يشك عاقل أنكم مفترون في دعواكم، متعنِّتون في مواقفكم.. ! !

ثم يقول ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ لحبيبه مطمئنًا ومثبتًا:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

فإن كذبوك فلا تبتئس، فقد كذبوا رسلاً من قبلك.. جاؤوهم بالمعجزات الظاهرة، والزبور، وما فيه من حكم زاجرة، والكتاب المنير، وما فيه من هدايات باهرة.

ثم يخبر الله تعالىٰ جميع الخليقة.. إخباراً عاماً بأن كل نفس ذائقة الموت.

حيث يقول الحق سبحانه وتعالىٰ:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

وهذه الآية: وعد للمؤمنين، بالتخفيف في سكرات الموت، والبشارة بالخير في ما بعده، من نعيم القبر، ويسر الحساب، والخلود في دار النعيم، ووعيد في ذات الوقت للكافرين: بالشدة والإيلام في سكرات الموت، والبشارة بالسوء فيما بعده من عذاب القبر، وشدة الحساب، والخلود في دار العذاب.

والوفاء الحقيقي بالثواب والعقاب للطائع والعاصي: يكون في يوم القيامة. والفائز ـ يومئذٍ ـ مَن زحزح عن النار وعذابها، ودخل الجنة ونعيمها.

أما هذه الحياة فصغير شأنها، حقير أمرها..!! فخذوا من متاعها طاعة الله إن استطعتم.. !! وقدموا لأنفسكم من خيرها، ولا تُفتنوا عن مرضاة الله تعالىٰ بزخرفها.

وبعد أن تحدَّث ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ مع النبي ﷺ عما وقع لهم من أعدائهم.. من باب التسلية والتخفيف عنهم.. ! ! يحدِّثهم كذلك عما سيقع لهم مستقبلًا، من الاختبارات الإلٰهية، ومن أذى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين، وذلك من باب التثبيت لهم والتوجيه، حيث يقول ﷻ:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

أي: من سنتنا أن يُبتلى المؤمن ويُختبر إيمانه في شيء من ماله ونفسه وولده وأهله، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وكلٌّ علىٰ قدر دينه.. ومَن كان في دينه قوة زيد عليه في البلاء.

وكذلك: سوف تسمعون من اليهود والنصاري، والكفار بطوائفهم أذىً كثيرًا، من الطعن في الدين، وتشويه تعاليمه ومبادئه، وصد مَن أراد الإيمان، وتخطئة مَن آمن.. إلخ. وكل هذا يحدث للمؤمن من الاختبارات لدينه، والإيذاء في دينه.

فماذا يفعل إذاً..؟

الطريق الحق، فاصبروا الصبر الجميل، الذي تصاحبه تقوىٰ الله، والعمل علىٰ نوال رضاه، فإن فعلتم ذلك.. من الصبر والتقوىٰ: أحسنتم، وبلغتم نوال ثواب عزائم الأمور، التي يتنافس عليها المتنافسون.

وفي هذا غاية الثناء من الله تعالىٰ علىٰ مَن تحقق في هذا الموقف وأمثاله، بالصبر والتقوىٰ.

ثم يتَّجه الحديث للتذكير بما أخذ الله علىٰ أهل الكتاب من أن يبينوا للناس ما في الكتب المنزلة علىٰ أنبيائهم، ومن ذلك: ما ورد بخصوص محمد ﷺ الذي كانوا ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فماذا فعلوا..؟ نقرأ سويًّا قوله تعالىٰ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

لقد كتموا ما طلب منهم بيانه، وطرحوه ـ استهانة به ـ وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً من عرض الدنيا الزائل، ومتاعها الفاني. فبئس البيع، وبئست الصفقة..!! وفي هذا تحذير للعلماء أن لا يسلكوا مسلكهم، فيصيبهم ما أصابهم.

وبعد أن ذكّر الله تعالىٰ بما أخذ علىٰ أهل الكتاب من عهود، وحذَّر من مسلكهم، يبين لنا ﷻ أن هذا الكتمان قد وقع، وأن مَن وقع منه ذلك يفرح به.

بل أكثر من هذا أن أهل هذا الكتمان يحبون أن يُحمدوا بأنهم أظهروا الحق، مع أنهم لم يظهروه، يقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما: سأل النبي ﷺ اليهود عن شيء مما عندهم في التوراة، فكتموه وأخبروه بغير الحقيقة، وفرحوا بما كتموه من حق عن النبي ﷺ، ثم طلبوا أن يحمدهم النبي ﷺ علىٰ ما أظهروه له من حق، بينما هم في حقيقة الأمر قد كتموا عنه الحق.

هؤلاء لا تحسبنهم ـ أيها المؤمن ـ ناجون من عذاب الله الأليم لهم.

لاحظوا ـ أعزكم الله ـ أن بعض المسلمين ـ أحيانًا ـ يفهمون المراد من هذه الآية فهماً خاطئاً.. ! ! كما حدث من مروان بن الحكم والي المدينة المنورة، حينما أخطأ في فهم هذه الآية.. يوم أن بعث واحداً من عماله إلىٰ عبد الله بن عباس، وقال له، قل له: لئن كان كل امرئ منا فرح بما فعل، ويحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً..!! لنعذبن أجمعين..؟

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما لكم ولهذه الآية، إنما نزلت هذه الآية في أهل الكتاب.

ثم يقول تعالىٰ بعد ذلك:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

أي: هو المالك لكل شيء، والقادر علىٰ كل شيء، فهابوه، ولا تخالفوه.

وبعد أن بيَّن الله لنا في الآيات السابقة صورة فريق من الناس لا يقومون بحق الله في كتابه، واتباع رسوله..!! يعطينا ـ عز وجل ـ في الآيات التالية ـ صورة لفريق آخر من الناس يقومون بحق كتاب الله تعالىٰ من خلال مجموعة من الآيات، تصف أولي الألباب، الذين إذا ذكَّروا يتذكرون، ويطيعون الله تعالىٰ، وله يتذللون، فلنقرأ سويًّا. قوله ﷻ:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾

أي: إن في خلق السمٰوات والأرض، واختلاف الليل والنهار أدلة واضحة علىٰ: صانع، حكيم، قادر، حي لأصحاب العقول التامة، الذكية، والذين هم أهل الفكر والذكر، والذين خلصت عقولهم عن الهوىٰ، خلوص اللب عن القشر.

ثم يحكي ربنا ـ عز سلطانه ـ معلمًا لنا ـ دعاء أوليٰ الألباب هؤلاء المبني علىٰ الدليل العقلي الذي عرفوه، فيقول جل شأنه:

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾

فيصلون بهذا الذكر، وبهذا الفكر إلىٰ عظمة الله تعالىٰ، فيقولون بألسنتهم:

﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ .

أي: نزَّهناك عن أن تكون خلقت الكون عبثًا، وعبدناك ـ وفق الفهم ـ لعظمتك، وابتغاء مرضاتك. ﴿فَقِنَا﴾ ونجِّنا ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

ولم يكتفوا بذلك بل تضرعوا في طلب هذه النجاة قائلين:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾

أي: أهنته وفضحته علىٰ رؤوس الأشهاد. وما ذلك إلَّا لأنه ظلم نفسه، ووضعها في

غير موضعها الذي أمر الله به، ساعتها ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ يدفعون عنهم هذا الخزي والهوان والعذاب، فلا تدخلنا يا رب النار..! !

وبعد هذا يحكي المولىٰ ـ معلماً لنا ـ دعاء آخر لأولي الألباب هؤلاء مبني علىٰ الدليل السمعي الذي وصلهم، فيقول المولى عز وجل:

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾

أي: بإيماننا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، وبالقرآن هاديًا ومنهاجاً، ربنا اغفر لنا الذنب كله، واجعلنا مع الأبرار بأن تختم لنا، كما ختمت بالحسنى لهم.

لاحظوا أنهم كانوا يحبون لقاء الله، وفي الحديث يقول المصطفى ﷺ:

«مَن أحبَّ لقاءَ اللهِ أحبَّ اللهُ لقاءه ومَن كَرِهَ لقاءَ اللهِ كرهَ اللهُ لقاءه» [رواه البخاري ـ كتاب الرقائق].

ثم يقول أولو الألباب داعين ربهم:

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

أي: يا ربنا أعطنا ما وعدتنا به علىٰ ألسنة رسلك الكرام من الفضل منك والرحمة بنا، ومع أن الله ﷻ.. لا يخلف وعده، وهم يعلمون ذلك جيدًا، إلَّا أنهم ألحُّوا في الضراعة والابتهال.. مبالغة منهم في التعبد والخشوع، ورجاء التثبيت علىٰ الإيمان، وطلباً لحسن الخاتمة.

نسأل الله تعالىٰ أن يجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقائه.. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وبعد هذا الإلحاح في الدعاء من أولىٰ الألباب، الذي قالوا فيه خمس مرات ﴿رَبَّنَا﴾ أنعم الله عليهم ببيان سنَّة من سننه، فيها كرمه وعدله. حيث قال جل جلاله:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

أي: سنتي مستمرة في أني لا أضيع ثواب عمل عامل منكم.. صغيرًا هذا العمل أو كبيرًا.

لا فرق بين ذكر وأنثىٰ في ذلك، حيث إن بعضكم من بعض.

ثم خصَّص بعض الأعمال.. وشرَّف فاعليها، وبيَّن جزاءهم عليها، في قوله تعالىٰ:

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

أي: هؤلاء المؤمنون الذي ضايقهم أعداء الله بالأذى، حتى ألجؤوهم إلىٰ الخروج من ديارهم، بسبب عقيدتهم، وجاهدوا أعداء الله، وقاتلهم مَن قدر علىٰ ذلك منهم، واستشهد مَن استشهد.

هؤلاء.. أغفر ذنوبهم، وأكفِّر عنهم سيئاتهم، وأُدْخِلهم جنات النعيم، وذلك كله جزاء من الله العظيم الكريم. والله عز وجل عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحًا.

يقول الإمام النسفي رحمه الله: والهجرة كائنة في آخر الزمان، كما كانت في أول الزمان.

وحقيقة هذا كلام نفيس، حيث نرىٰ ذلك في عصورنا هذه كثيرًا.

وبعد أن بيَّن الله حسن ما أعطىٰ المؤمنين، يثبتهم ببيان سوء ما أعد للكافرين، حيث يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾

أي: لا يغررك ويفتنك ويصرفك عن الحق ما فيه أهل الكفر، من النعمة، والسرور، والمتعة، واللذة، والسلطان.

وحقيقة الأمر ما أكثر مَن يغتر بسلطان الكافرين وعزتهم، وسيطرتهم علىٰ كثير من بلاد العالم، وتقلبهم بها، وتحكمهم في أمورها، هؤلاء لذتهم ومتاعهم فيها، كما أخبر تعالىٰ:

﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾

يعني: سلطانهم وتقلبهم في البلاد، وسيطرتهم علىٰ أمورها وكنوزها وخيراتها متاع قليل في جنب ما فاتهم من رضوان الله، وما أعده الله للمؤمنين من نعيم الآخرة، كما أن مصيرهم ومأواهم.. إلىٰ جهنم، وساءت جهنم مهاداً مهَّدوه لأنفسهم، هذا متاع الكافرين لا بقاء له.

أما متاع المؤمنين المتقين، فهو المتاع الحقيقي الذي لا انقضاء له، حسب البيان الإلٰهي له، في قول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

وما دام الأمر كذلك، فليثبت أهل التقوى في كل الظروف، حتىٰ وإن كانت الغلبة والعزة، والسلطان، لأهل الكفر والطغيان. ثم يبين ربنا ـ الكبير المتعال ـ أن ما أعطاه وأعده للمتقين من المتاع الحقيقي.. إنما هو رزق، وعطاء، وضيافة لهم من عنده تبارك وتعالىٰ، إذ يقول: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وما دام من عند الله، فلا يبلغه وصف، ولا يُحيط به علم.

وهذا عين الحقيقة، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ أي: خير لهم وأفضل مما يتقلب فيه، وينعم به الفجار.

وما دام الأمر كذلك، وهو كذلك حقاً، فليثبت أهل الإيمان والتقوىٰ والحق، علىٰ العمل بكتاب الله، والالتزام بشرعه، دون افتتان بما عليه الكفار.

وبعد هذه التوجيهات الربانية، والبشارات التي يثبِّت الله بها المؤمنين.. ! ! يذكر الله تعالىٰ صنفاً من أهل الكتاب غير مَن سبق ذكرهم من الكافرين، أو الذين يكتمون ما أنزل الله إليهم من الكتاب.

وبذلك يظهر أن أهل الكتاب ليسوا كلهم سواء، فلنقرأ كلام ربنا الحكيم الخبير:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾

هؤلاء طائفة من أهل الكتاب، آمنوا بالله حق الإيمان، وآمنوا بما أنزل علىٰ محمد ﷺ، مع ما هم عليه من الإيمان بالكتب المتقدمة، ومع أنهم خاشعون، مطيعون، خاضعون لله، متذلِّلون بين يديه، ابتغاء رضوانه.

وسبب نزول هذه الآية: أن النجاشي ملك الحبشة ـ وكان نصرانياً فأسلم ـ لمَّا مات نعاه جبريل إلىٰ النبي ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «**اخرجوا، فصلوا علىٰ أخ لكم مات بغير أرضكم**».

فخرج إلىٰ البقيع، فنظر إلىٰ أرض الحبشة، فأبصر سرير النجاشي، وصلىٰ عليه واستغفر له.

فقال المنافقون: انظروا إلىٰ هذا، يُصلي علىٰ نصراني لم يره قط، وليس علىٰ دينه.

فنزلت الآية.

هذا.. والعلماء يقولون: «العبرة بعموم لفظ الآية، وليس بخصوص سبب نزولها».

ولذلك يدخل في حكمها كل مَن يؤمن من أهل الكتاب ـ اليهود أو النصارىٰ ـ ويدخلون في الإسلام اليوم، وإلى يوم الدين. ويكون لهم من الله الجزاء الحسن مثل ما لهؤلاء. حسب قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: هؤلاء المتَّصفون بهذه الصفات الحميدة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ والذي وعدهم به ربهم في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤] تكريمًا لهم وتشريفًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يعني: فيصلهم أجرهم الحسن، الموعودون به، علىٰ وجه السرعة، لنفوذ علم الله تعالىٰ بجميع الأشياء .

وصلنا ـ بفضل الله تعالىٰ ـ إلىٰ خاتمة السورة، وهي الآية الأخيرة في آياتها.

وفيها يكون التعقيب علىٰ ما في السورة من تعاليم، وأحكام بما يؤدي إلى الفلاح والفوز بكل مطلوب، والنجاة والخلاص من كل الكروب.

حيث يقول تعالىٰ بنداء كريم من رب كريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

يعني: يا أهل الإيمان ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ علىٰ مشاق الطاعات، وغير ذلك من المكاره والشدائد، ﴿وَصَابِرُواْ﴾ أعداء الله في الجهاد، وغالبوهم في الصبر علىٰ شدائد الحرب، ولا تكونوا أقل منهم صبرًا، ﴿وَرَابِطُواْ﴾ علىٰ الثغور، مترصِّدين عدوكم، ورابطوا علىٰ إتقان أعمالكم، بغرض التفوق علىٰ أعدائكم، ورابطوا في الطاعات؛ لهزيمة الشيطان، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في كل ما أمركم به، فلا تخالفوا أحكامه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

نسأل الله تعالىٰ الفلاح في الدنيا والآخرة، بنوال مرضاته، آمين. وصلى الله وسلّم علىٰ نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

* * *